رواية

2020
31.12.2019

إيان مكّيوان

ترجمة تهاني فجر

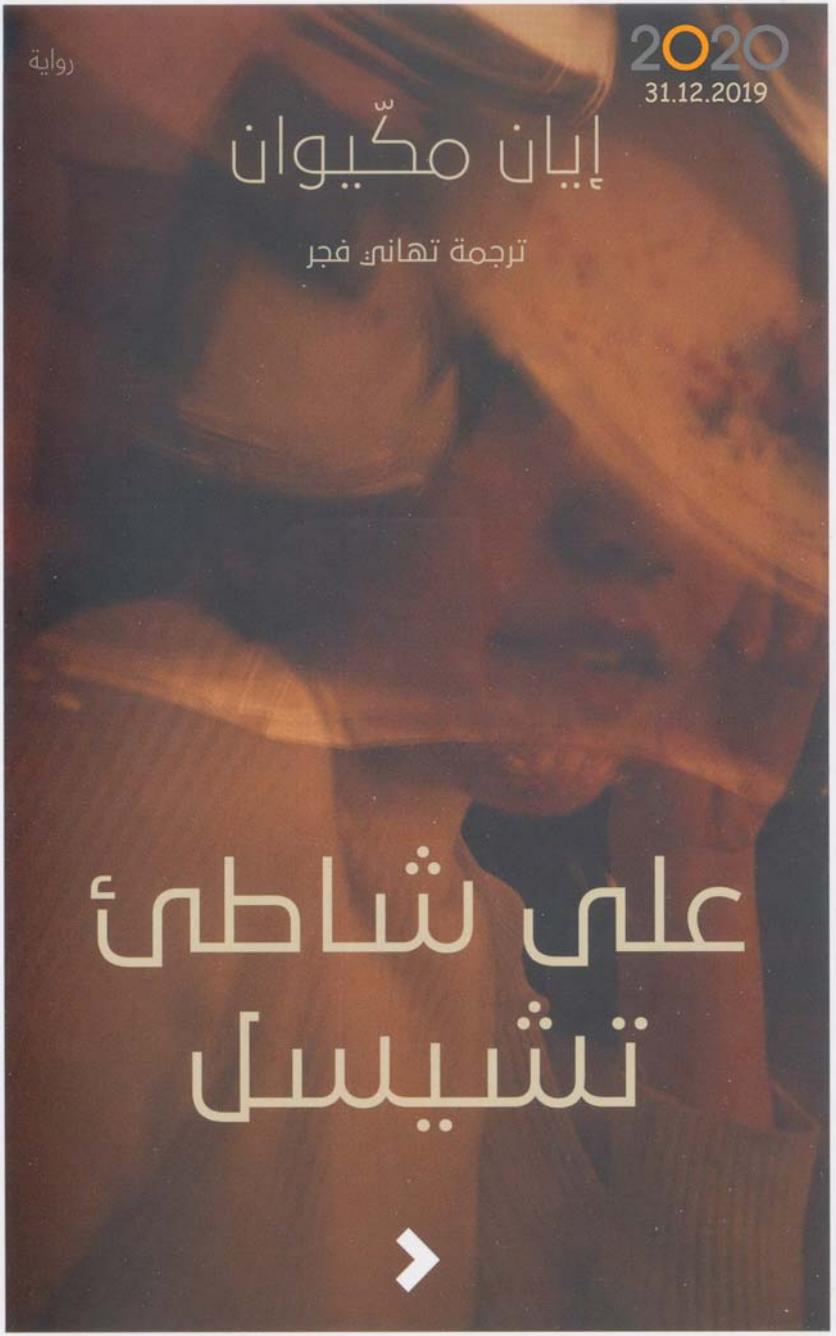

على شاطئ تشيسل

إيان مكيوان

على شاطئ تشيسل

ترجمة تهاني فجر

على شاطئ تشيسل

هذا الكتاب بدعم من:

1001 عنوان

مبادرة 1001 عنوان

على شاطئ تشيسل

تأليف: إيان مكيوان
ترجمة: تهاني فجر
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-24-172-0

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

جميع الحقوق محفوظة © روايات 2020
محتوى هذا الكتاب لا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر
تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع: MC-02-01-8416173

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
On Chesil Beach
Copyright © Ian McEwan 2007

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

إلى آنالينا.

الفصل الأوّل

كانا شابّين مثقّفين، وعذراوين هذه الليلة، ليلة زفافهما، عاشا في زمن كان الحديث فيه عن المشاكل الجنسيّة مستحيلًا بكلّ وضوح، لم يكن ذلك سهلًا قط، لقد جلسا للتوّ كي يتناولا العشاء في صالون جناحهما الصّغير في الطابق الأوّل من فندق ذي طابع جورجيّ، ومن خلال الباب الموارب للغرفة المجاورة، يظهر سرير ضيّق إلى حدّ ما ذو أربعة أعمدة وقُبّة، بدا غطاؤه أبيض ناصعًا، ناعمًا ومفرودًا بشكل مذهل، كأن ذلك لم يحدث بأيدٍ بشريّة. لم يذكر إدوارد أنه لم يسبق له المكوث في فندق، بينما خَبِرَت فلورنس الفنادق لكثرة ما ارتحلت مع والدها في طفولتها، ظاهريًّا كانا مبتهجين، جرى زفافهما على أحسن ما يرام، في كنيسة القديسة ماري في أكسفورد، أقيمَت الشعائر الكنسيّة بشكل لائق، وحفل الاستقبال كان مُبهجًا، ووداع أصدقاء المدرسة كان صاخبًا ومميّزًا، وعلى عكس ما خشياه معًا، لم ينظر والدا فلورنس إليه نظرة استعلاء، وبدورها لم تقترف والدته أيّ عمل أخرق، حتى إنها لم تنسَ سبب الاحتفال.

سافر العروسان في سيارة والدة فلورنس الصغيرة، ووصلا في وقت مبكّر من المساء إلى فندقهما الواقع على شاطئ دُورْسِتْ، ووجدا طقسًا لم يكن معروفًا أنه يحلّ في منتصف شهر يوليو، وغير لائق بمناسبتهما أيضًا، لكنهما وجداه كافيًا ومقبولًا: فالسماء لم تمطر، والرياح ليست دافئة تمامًا -حسب رأي فلورنس- ليأكلا في الشرفة كما كانا يأملان، وبرغم اعتقاد إدوارد أن الطقس مناسب

جدًّا لعشاء في الشرفة، فإنّه بسبب أدَبه الجمّ، لن يفكّر أبدًا في معارضتها في ليلة كهذه.

لذلك أكلا في غرفتهما أمام النوافذ الفرنسية المواربة التي تطلّ على الشرفة، وعلى منظر جزئي لبحر المانش، وشاطئ تشيسل بحصاه المنتشرة على مدّ النظر، قام على خدمتهما نادلان بلباس رسميّ، وفّرا طلباتهما من عربة طعام موجودة في الرّدْهة، إنّ حركتهما جيئةً وذهابًا عبر ما كان معروفًا بجناح الزفاف، قطع صمت المكان بإحداث صرير على ألواح خشب السنديان المصقول جيّدًا الذي يغطّي الأرضيّة، وبكُلّ زهوٍ وحِرص، راقب إدوارد بدقّة كلّ إيماءة ندّت عن النّادلَين والتي قد تنمّ عن تهكّم ما، لم يكن ليحتمل أيّ سخرية، لكنّه وجد أنّ هذين المراهقين اللذين جاءا من قرية مجاورة، يتردّدان لخدمتهما بظهر محنيّ ووجه جامد، وهيأة مضطربة، كانت أيديهما ترتعش عندما يضعان شيئًا ما فوق الغطاء الكتاني المعالَج بالنشا، هما أيضًا كانا متوترين.

لم تكن تلك الحقبة الزمنيّة باذخة في تاريخ المطبخ الإنجليزي، لكن لا أحد اهتمّ بذلك حينها ما عدا الزوّار الأجانب، بدأ عشاء العروسين كأيّ عشاء تقليدي في ذاك الزمن، بقطعة من البطيخ مزينة بحبة لامعة من الكرز، خارجًا في الرّدهة، ثمّة قطع من لحم عجل مشوي في أوعية فضية فوق موقد، يعود نضجها إلى عدة ساعات مضت، مغموسة في صلصة كثيفة فيها خضروات مسلوقة وبطاطا مُزرَقّة، كان النبيذ فرنسيًّا لكن لم يُحدّد مُلصَق القنّينة من أيّ منطقة، زُيّن فقط بطير سنونو وحيد مندفع، لم يخطُر لإدوارد أن يطلب نبيذًا أحمر.

كانا يائسين من مغادرة النادلين في وقت قريب، ولذلك أدار هو وفلورنس مقعديهما ليتأمّلا مرجًا أخضر فسيحًا، وما بعده من أجمات مُزهرة وأشجار على مقرُبة من منحدر يهبط نحو طريق تتّجه إلى الشاطئ، شاهدا بداية الرّصيف الضيق، وبعض الدرجات الموحلة وممرًّا محاطًا بنباتات أفرطت في النموّ – نبات الراوند العملاق، وكرنب بسيقان منتفخة على عُلُوّ ست أقدام، تنحني تحت ثقل أوراق قاتمة ذات عروق بارزة، انتصبت النباتات أمامهما بشهوانيّة استوائيّة في وفرتها، وقد زاد تأثيرها في النّفس ذلك الضوء الرماديّ اللطيف الذي يحيطها، والضباب الخفيف المُنساق مع تيّار البحر بحركته المنتظمة مدًّا وجزرًا، تلك الحركة التي لها صوت بدا كأنه دويّ عاصفة بعيدة، ثم يتحوّل إلى هسيس مباغت فوق الحصى.

خُطّتهما هي أن يُبدلا نعليهما بعد العشاء ليذهبا للسّير بين البحر والبحيرة الضحلة المعروفة باسم فُلِيْت، وإنْ لم يُنهيا زجاجة النبيذ بعد، فسوف يأخذانها معهما ويشربان من الزجاجة نفسها مثل مشرّدي الطرقات.

وما أكثر الخطط التي رسماها، خطط طائشة ومكدسة أمامهما في مستقبل ضبابي، متشابكة بعضها ببعض تشابُكَ نباتات ساحل دُورْسِتْ الصيفية، بل وأكثر، وفي مثل جمالها: أين سيعيشان وكيف؟ من هم أصدقاؤهما المقرّبون؟ أحوال وظيفته في شركة والدها ومهنتها كموسيقيّة، وطريقة التصرف بالمال الذي أعطاه لها والدها، ورفضهما العيش كسائر الناس – على الأقل داخليًّا، ما زال الحال في هذا العصر – الذي سينتهي بانتهاء هذه الحقبة – أن يشكّل شبابك لك عائقًا اجتماعيًّا إلى الأبد، إنّه علامة على الانبتات عن مُحيطك،

ووضع مُحرج، حيث يغدو الزّواج هو بداية العلاج منه.

كانا مختلفَين إلى حدّ ما، ويقفان بغرابة معًا على قمّة وجودهما، مفتونين بوضعهما الجديد الذي يعدهما بالخروج من مرحلة "الشّباب" الأبديّة، إدوارد وفلورنس أخيرًا حرّان! شكّلت طفولتاهما أحد مواضيع حديثهما المفضّلة، لم يتناولا المسرّات بقدر ما تناولا ضباب إساءات الفهم الساخرة الذي كبُرا فيه، وأخطاء التّربية المتكرّرة وممارساتها القديمة التي تجاوزها الزمن وقد بات في مقدورهما الآن أن يغفراها.

من تلك القمم الوجوديّة الجديدة استطاعا الرؤية بوضوح. وفي المقابل، لم يستطيعا أن يتشاركا بعض المشاعر المتناقضة، كان كلٌّ منهما ومن زاويته الخاصّة قلِقًا بشأن اللحظة التي تعقب انتهاء العشاء، ساعة اختبار نضجهما الجديد، حين يستلقيان معًا على السرير ذي القبة ويتعرّيان تمامًا أمام بعضهما، منذ ما يقارب العام وإدوارد مسكون بهاجس هذا المساء من شهر يوليو، حين سيُمسي الجزء الأكثر حساسية من جسده داخل تجويف طبيعي في جسد هذه الشابة المرحة الجميلة، فائقة الذكاء، إنّ قلقه الخاص المرتكز على قلّة الخبرة فاق تلك الإثارة التي سمعها من شخص ما وهو يصف "خطر الوصول إلى النشوة في وقت مبكّر"، نادرًا ما كانت هذه المسألة خارج تفكيره، برغم أن خوفه من الفشل كان قويًّا، إلّا أن لهفته وإصراره لبلوغ النشوة كان أقوى بكثير.

أمّا فلورنس فقد كانت عرضة لضيق أعمق بكثير، وكانت هناك لحظات أثناء الرحلة من أكسفورد عندما فكّرت أن تستجمع كل قواها لتبوح بكل ما يجول في تفكيرها إليه، لكن أسباب قلقها

لا توصَف، وبالكاد تعبّر عن نفسها، إن كان إدوارد يعاني من التوتّر المألوف في ليلة الزواج الأولى، فإنها كانت مسكونة برهبة عميقة، واشمئزاز بائس واضح مثل دوار البحر، غالبًا ما نجحت خلال أشهر الإعداد للزفاف في تجاهل ما يعوق سعادتها، لكن كلما تحول تفكيرها نحو العناق –لم تكن تفضّل أيّ تعبير آخر– تنقبض معدتها، أشبه بشيء مُقرف تستطعمه في نهاية حلقها.

صادفَت كتيّبًا كان من المفترض أن يكون مفيدًا للشباب حديثي الزواج، بأسلوبه المبهج وعلامات تعجّبه وزخرفته المرقّمة، لكن كان لكلمة ما أو تعبير معيّن أن يُشعرها بالغثيان، مثل: غشاء البكارة؛ والحشفة المُخيفة اللامعة، أهانت بعض الصور ذكاءها، خاصة تلك التي تتكلم عن الولوج "قبل أن يدخل فيها بقليل" أو "أخيرًا دخل فيها" وأيضًا "لحسن الحظ، بمجرّد أن ولج فيها"، هل ستكون مجبرة في اللحظات القادمة بعد العشاء أن تتحوّل عند إدوارد إلى مجرّد نوع من أنواع البوّابات، أو قاعة استقبال في إمكانه الولوج إليها؟ غالبًا ما كانت تراودها أيضًا تلك الكلمة التي لم تعنِ لها شيئًا سوى الألم، قطعة لحم أمام سكّين: الولوج.

حاولت إقناع نفسها في لحظات تفاؤلها بأنها لم تكن مصابة بنوع من الاحتشام المفرط، الذي سيكون مصيره الزوال في النهاية، فلم تكن تفارقها صورة خصيتي إدوارد وهما تهتزان فوق قضيبه المنتفخ، وهذا تعبير مُخيف آخر، كفيل بجعل شفتها العُليا ترتعش.

ثم الفكرة نفسها في إمكانية أن يلمس أحد ما مكانها الحميم تحديدًا، حتى وإن كان هذا الشخص هو حبيبها، تلك الفكرة تسبّب لها نفورًا أقرب إلى النّفور من عمليّة جراحية في العين، لكن خوفها

المتنامي لا علاقة له بخطّة إنجاب الأطفال، فهي تحبّهم، فلطالما اعتنَت بأطفال ابنة عمّها، وكانت ترى أنه أمر مُسَلّ جدًّا، لقد أمتعتها فكرة أن تحمل أطفالًا من صُلب إدوارد، على الأقل بالمعنى التجريدي، ولم تخشَ آلام الولادة، لولا أنه لم يكن في قُدرتها أن تجد نفسها حاملًا بأعجوبة مثل مريم العذراء.

لطالما ظنّت فلورنس أن هناك أمرًا عميقًا غير طبيعيّ يشوبها، وهي التي كانت دومًا مختلفة، وأن هذا الاختلاف على وشك أن يكشف عن حقيقته، مشكلتها -كما كانت تظنّ- أكبر وأعمق من القرف الجسدي البسيط، فقد كان جسدها كلّه يقاوم مشهد التعرّي، وفكرة الأجساد المتشابكة تكاد تغتصب طمأنينتها وسعادتها الجوهريّة، كانت ترفض بكل بساطة فكرة الولوج أو اكتشاف داخلها، لم تكن مشاركة الفراش مع إدوارد تمثّل لها قمّة السعادة بأيّ شكل من الأشكال، بل كانت الثمن الذي يجب أن تدفعه من أجلها.

كان واجبًا عليها أن تُفصح له عن مخاوفها منذ زمن، تعرف ذلك، منذ أن أبدى رغبته في الزواج منها، حتى قبل زيارة القسّ المخلص وصاحب الصوت الخاشع، وقبل دعوات عشاء الأهل، وقبل الدعوات كلّها التي انهمرت عليهما، وقبل وضع قائمة الهدايا التي صمّمها وقدّمها أحد كُبريات المحال التجارية، وقبل أن يُحجز السرادق والمصور الفوتوغرافي، وقبل التحضيرات الأخرى التي لا رجوع عنها، لكن ما الذي يمكنها قوله، ما الكلمات التي ستطاوعها فيما هي عاجزة عن شرح المشكلة لنفسها؟ حُبها لإدوارد يخلو من تلك الحرارة، تلك الرّغبة الجنسيّة النّديّة التي قرأت عنها في الكتب، لكنها تحبّه بعمق، بحنان، بطريقة تأخذ شكلًا طفوليًّا أحيانًا، وشكلًا أموميًّا أحيانًا

أخرى، تودّ أن تهدهده، أن تشعر بذراعيه القويتين تحيطان بكتفيها، وتحبّ أن يقبّلها برغم كرهها للسانه حين يدخل فمها، وهو أمرٌ أفهمته إيّاه دون كلام.

وجدَته شخصًا غير مألوف، مغايرًا لبقية الرجال الذين التقت بهم، دائمًا ما تراه يحتاط بحمل كتاب جَيْب في سُترته، تاريخيّ في مُعظم الأحيان، في حال وجد نفسه في طابور أو غرفة انتظار، يضع علامة بقلم رصاص صغير على ما قرأ منه.

فعليًّا هو الرجل الوحيد الذي لا يدخّن مِن بين مَن التقتهم فلورنس، جواربه جميعها غير متجانسة، ولا يملك سوى ربطة عنق واحدة، ضيّقة وداكنة الزُّرقة، وغالبًا ما يعقدها فوق قميص أبيض، أُعجبَت جدًّا بطبعه الغريب، ولكنته الريفيّة الخفيفة، بالقوة الهائلة في يديه، وأجوبته المفاجئة، والاندفاع في حديثه، ولطفه معها، ونظرته إليها عندما تتحدث بحيث تشعر أنه يغلّفها بغيمة حب حنونة من عينيه البنيتين، لم تكن تشكّ لحظة واحدة وهي في الثانية والعشرين من عمرها برغبتها في قضاء حياتها مع إدوارد مايهو.

كيف يمكنها المخاطرة بفقدانه؟ لم يكن هناك أحد لتتحدّث إليه، لا تعرف أحدًا آخر تثق به.

أختها روث لم تزل فتاة صغيرة حينئذ، أمّا والدتها، برغم طريقتها المدهشة، فإنها مثقّفة جدًّا، لكنها مُهْمِلة إلى أبعد الحدود، فهي امرأة متحذلقة من الطراز القديم، وتميل إلى التصرّف كأستاذ في قاعة محاضرات أمام أيّ مشكلة حميمة، تستخدم مصطلحات طويلة جدًّا وتنوّه بكتب تعتقد أن الناس كلّهم قرأوها، وفقط عندما تتأكد أن الأمور قد أنجزت كما أرادت، تسترخي وتمثّل دور الإنسان

الودود، وهو أمر نادر الحدوث، وحتى ذلك الحين لا تأمن ألّا تُلقي إليك نصيحة ما.

حظيَت فلورنس بصديقات رائعات، في المدرسة والمعهد الموسيقي، لكنهن كنّ يعرضن المشكلة بطريقة معكوسة، فقد كنّ متيّمات بالأحاديث الحميمة، ويستمتعن بالحديث عن المشاكل الأخرى، ويعرف بعضهن بعضًا ولا يتملكّهن إلّا نزعة كبيرة واحدة هي التحدّث عبر الهاتف أو الكتابة، لم تكن فلورنس لتستطيع إيداع أيّهن سرًّا دون توجيه اللوم بطريقة ما، فهي عُضْو في المجموعة، لم تكن تثق في نفسها، لهذا كانت وحيدة أمام مشكلة لا تعرف كيف تعالجها، وكل ما في طريقها من معرفة هو ذلك الكتيّب المرشد، الذي يحمل غلافه الأحمر الصارخ ابتسامتين لشخصين بعيون مفتوحة على اتساعها، يشبكان أصابعهما النحيلة ويمسك أحدهما بيدَي الآخر، مرسومتين بشكل سيء وبطبشور أبيض اللون، تمامًا مثل رسومات الأطفال الأبرياء.

***

أكلا البطيخ في أقل من دقيقتين، أصلح خلالها النادلان اللذان بقيا قرب الباب –عوضًا عن الانتظار في الرّدهة– ربطتَي عنقيهما وياقتيهما المشدودتين، وسويّا أطراف أكمامهما، لم يندّ عنهما أيّ تعبير مختلف فيما يراقبان إدوارد وهو يقدّم إلى فلورنس حبّة كرز لامعة من صحنه بإيماءة مضحكة، وبطريقة لعوب، مصّتها من أصابعه بتروٍّ وهي تنظر إليه أثناء مضغها، تاركةً طرف لسانها يظهر، ناظرةً إلى عينَي إدوارد المحدّقتَين، واعيةً أن مغازلتها له بهذه الطريقة

قد تزيد من خطورة حالتها.

كان يجب ألّا تبدأ بما لا تستطيع تحمّله، لكن أيّ مجهود صغير لإسعاده كان يساعدها: يخفّف من شعورها بِلَا جدواها، ودّت لو أمكنها اقتصار الأمر كله على حبّة كرز لزجة تأكلها فحسب!

لكي يبدو أنه لا يكترث لوجود النادلين، برغم انتظاره مغادرتهما بنفاد صبر، ابتسم إدوارد بينما يستند إلى مقعده مع كأس نبيذه والتفت نحوهما:

"هل عندكما مزيد من هذه الأشياء؟" سألهما.

"المعذرة يا سيّدي، لا" أجاب أحد النادلين.

ارتجفت كأس النبيذ في يده عندما كبح سعادته الفجائيّة وانتشاءه بهذا الرّد، بدت فلورنس مُشعّة أمامه، فاتنة، حُلوة، مغرية ومعطاءة، وَدودا دون حدّ.

تقدّم النادل الذي أجابه إلى الطاولة لتنظيفها، كان مساعده في الرّدهة، يغرف الوجبة التالية من لحم العجل المطبوخ ويضعها في الأطباق، خلافًا للعادة، لم يكن ممكنًا دفع طاولة الأطباق ذات العجلات إلى جناح العروسين لتقديم الطعام بشكل لائق، وذلك بسبب وجود درجتين أمام مدخل الغرفة نتيجة سوء التخطيط، مع أن هذا الفندق كان منزلًا يتوسّط حديقة في عصر الملكة إليزابث منتصف القرن الثامن عشر، ولهذا فقد بُنيَ على الطراز الجورجي.

برغم أن العروسين بقيا وحدهما قليلًا، فإن وشوشات النادلين تناهت إلى سمعهما طوال الوقت عبر الباب الموارَب، وأصوات كشط الطعام عن الصحون ووضعها في أطباق التقديم، أرخى إدوارد كفّه على كفّ فلورنس وهمس للمرّة المئة في هذا اليوم "أحبّكِ" فردّت

فورًا بالمثل، وكانت تعنيها تمامًا كلّ مرّة.

حصل إدوارد على شهادته في الدراسات التاريخيّة بمرتبة الشرف متخرّجًا في كليّة لندن الجامعية، في غضون ثلاث سنوات سريعة درس الحروب، والانتفاضات، والمجاعات، والأوبئة، ووقائع نهوض عدة إمبراطوريات وسقوطها، كما درس الثورات التي التهمت الأطفال، والصعوبات الزراعية، والتلوث الصناعي، إلى جانب فظاعات النُّخَب المهيمنة، قرأ جداريّات ضخمة بأشكال وألوان مختلفة للقمع والبؤس والرجاء الخائب، وفَهِمَ كم باستطاعة الحياة أن تكون جاحدة وشحيحة جيلًا بعد جيل، إنّ أوقات إنجلترا الهانئة المزدهرة، طوال التاريخ نادرة جدًّا، والسعادة التي يتشاركها إدوارد وفلورنس في هذا السّياق كانت استثناءً، بل أمرًا فريدًا.

في سنته الأخيرة أجرى دراسة مختصّة في نظريّة "الإنسان العظيم" في التاريخ، هل كان إدوارد حقًّا من الطراز القديم ليُصدّق أن في استطاعة بعض الأفراد المعدودين الأبطال صنع مصير أمّة؟ أستاذه الجامعيّ لا يعتقد ذلك، فالتاريخ، حسب رأيه، ينقاد بقوّة محتومة نحو نهايات لا مفرّ منها وضرورية، وسيكون قريبًا موضوعًا مفهومًا بوصفه علمًا، لكن الحيوات التي عاينها إدوارد بالتفصيل: حياة قيصر؛ وشارلمان؛ وفريدرك الثاني؛ وكاثرين قيصرة روسيا؛ ونيلسون؛ ونابليون (ترك ستالين جانبًا نزولًا عند إصرار أستاذه) تشير إلى عكس ذلك، فالقبضة الحديدية عرّت الجشع والحظ، حاول إدوارد أن يبرهن أنه يُمكن لإنسان ما قيادة وتغيير مصير ملايين البشر، وكان هذا سببًا في حصوله على تقدير "ب" وهي نتيجة معاكسة كلّفته درجة في ترتيب نجاحه.

كان اكتشافًا بالمصادفة خلال تلك الدراسة أن النّصر الأسطوري حمل قليلًا من الفرح وكثيرًا من نفاد الصبر، وجرعة زائدة من الطموح الجشع، حين ارتدى ثيابه لأجل مراسم الزفاف هذا الصباح (بدلة ذات ذيل طويل، وقُبّعة رسمية) وأغرق نفسه بعطر كولونيا مركّز، كان قد قرّر ألّا أحد من الأشخاص في محيطه استطاع معرفة هذا النوع من الرّضا، كانت غبطته نوعًا من الشعور بالعظمة في حدّ ذاتها، رجل في قمّة مجده تقريبًا، هذا ما كان عليه وهو في سن الثانية والعشرين، فقد سبق أن تفوّق عليهم جميعًا.

إنّه يتأمل زوجته الآن، ينظر بإعجاب إلى عينيها العسليّتين المعقّدتين، إلى ذلك البياض المخلوط بمسحة مشوبة بلون أزرق حليبيّ باهت، رموشها كثيفة وقاتمة أكثر من رموش الأطفال، وثمّة سِمَة طفوليّة في رزانة وجهها لحظة السكون، وجهها الفاتن يظهر تحت تأثير بعض الأضواء ليذكّر بامرأة أمريكية (من الهنود الحمر) نبيلة الأصل، تحمل فلورنس ذقنًا حادة وابتسامة عريضة وبريئة تمتدّ خطوطها حتى تلتقي عند زوايا عينيها.

جسدها ممتلئ، وفي حفل الزفاف لاحظ بعض العجائز ممن يتمتعن بالمعرفة وركبها السخيّين ونهديها اللذين طالما لمسهما وقبّلهما إدوارد عن بُعد، كانا صغيرين، أمّا يداها، يدا عازفة الكمان، فقد كانتا شاحبتين وقويّتين وطويلتين، في أيام الرياضة المدرسيّة أظهرت مهارة عجيبة في رمي الرّمح.

إدوارد لم يكن يهتم للموسيقى الكلاسيكية، لكنه بدأ الآن يتعلم لغتها المرحة وطريقة عزف الكمان، ثم شيئًا فشيئًا، ونتيجة اضطراره لسماع هذه النغمات، توصّل إلى معرفتها أخيرًا، لا وبل

استساغ بعض المقطوعات، وقد أثّرت فيه بشكل خاص تلك التي كانت تعزفها فلورنس مع بعض أصدقائها، عندما يسمعها تعزف تلك المقطوعات والنغمات المتتالية في منزلها، مُرتديةً طوقًا على شعرها، لمسة الطّوق الجماليّة المحببة إلى قلبه تجعله يحلم بابنة ربما ستكون ابنتهما يومًا ما، كان عزف فلورنس صعبًا ودقيقًا، وذاع صيتها بسبب تنوّع نغمها الموسيقي، وقد قال أحد أساتذتها مرّة إنه لم يسبق له أن قابل طالبة بإمكانها جعل الوتر يغني بدفء عالٍ، عندما تكون أمام حامل النوتة الموسيقية في غرفة التدريبات في لندن، أو في غرفتها في منزل أبويها في أكسفورد، كان إدوارد يتمدد على السرير وينظر إليها باشتهاء إذ تقف بأناقة، بظهر مستقيم ورأس مرفوع بشموخ، تقرأ النوتة الموسيقية بتمكُّن، بهيئة شبه متعجرفة تُثيره، كانت تلك النظرة تحمل في طيّاتها ثقة كبيرة جدًّا، ومعرفة عميقة حول الطريق الذي يقود نحو المتعة، تبدو واثقة وسَلِسة في حركاتها بمجرد أن يتعلق الأمر بالموسيقى، تمسح وتر القوس بالصمغ الصنوبري، تقوم بضبط أوتار كمانها، أو تضعه جانبًا في صندوقه كي تستقبل أصدقاءها الثلاثة الذين يشكلون معها فرقة رباعية كانت شغوفة بها، هي قائد الفرقة دون منازع، وإليها تعود الكلمة الفصل دائمًا عند عزف المقطوعات الموسيقية المختلفة، لكن في بقية الأوقات من حياتها كانت حمقاء ومتردّدة بشكل يدعو إلى الدهشة، ترتطم أصابع قدمها أو رأسها أو تصطدم بما حولها دائمًا، في استطاعة تلك الأصابع نفسها التي بمقدورها مفاوضة الأوتار وعزف قطعة موسيقية لباخ، أن تقلب كوبًا من الشاي فوق مفرش الطاولة الكتاني، أو تسقط كأس من يدها على الأرضية المبلطة، كانت تتعثر بمجرّد شعورها أنها مراقبة، اعترفت

لإدوارد أن السير في الشارع باتجاه إحدى الصديقات يشكّل لها اختبارًا حقيقيًّا، كانت تحرّك يدها بشكل آلي نحو جبهتها لترفع خصلة شعر وهميّة عند شعورها بالارتباك، كنوع من اللفتة الحذرة المضطربة التي تدوم فترة طويلة برغم تلاشي سبب التوتر.

كيف باستطاعته ألّا يقع في حُبّ شخص متفرّد ورقيق بهذا الشكل الاستثنائي، شخص نبيل وحسّاس حدّ الألم، حيث كلّ انفعال وأيّ فكرة تبرز للعيان بكامل عُريها، تتدفّق مثل جُسيمات مشحونة في تعابيرها وإيماءاتها؟ ولو لم تكن بهذا الجمال البارز لكان أحبّها أيضًا، وهي مَن أحبّته بمثل جموحه، مصحوبًا ببعض التحفّظ المؤلم، ليس ولعه فقط الذي تفاقم لعدم وجود أيّ مخرج حقيقي، بل إن غرائزه الدفاعية باتت مُثارة أيضًا، لكن هل كانت في الحقيقة بهذه الحساسية والضعف؟ لقد اختلس نظرةً إلى ملفّها الدراسيّ مرّة، وشاهد نتائجها في اختبارات الذكاء، كانت درجتها مئة واثنتين وخمسين، أي أكثر منه بسبع عشرة درجة، في ذلك العصر، يُعنى الناس باختبارات الذكاء تلك، وتؤخذ لتقيس أمرًا ملموسًا كما قياسات الطول والوزن، حين يتواجد إدوارد خلال تمارين الفرقة الموسيقيّة الرباعيّة، وعندما تختلف فلورنس حول مقطع موسيقي أو إيقاع أو حركة مع عازف التشيلّو، شارل المحترف البدين صاحب الوجه اللّامع المليء بحبّ الشباب المتأخر، يُفتن إدوارد برباطة جأشها، لم تكن تناقش، بل تصغي بهدوء، ثم تعطي رأيها، وحينئذ لم تكن تُظهر حركة اليد الانفعالية التي تُبعد بها خصلة شعر وهميّة عن جبهتها، كانت حازمة وتعرف ما تريد، ما مكّنها من قيادة العازفين كما يجب، كأنها ورثت ما ترغب به فقط من والدها برغم شخصيته المخيفة إلى حدّ ما، والدها

الذي عرض عليه قبل أشهر عدّة من الزواج وظيفةً في شركته نزولًا عند رغبة ابنته، سواء رغب بها حقًّا أم لا، فإنه لم يجرؤ على رفضها، تلك مسألة أخرى، تعلم فلورنس مسبقًا –بشيء من الغريزة الأنثوية– ما تحتاج إليه بالضبط من أجل إتمام هذا الزواج، بدءًا من قياس سرادق الزفاف وصولًا إلى كمية أطباق الحلوى، وبذلك قدَّرَت كم من الممكن أن يدفع والدها في الزفاف.

***

"ها هو الطبق التالي" همست له فيما تردّ بحركة من يدها محاولةً تحبُّب جديدة منه، وصل النادلان مع أطباق لحم العجل المطبوخ، وكانت الكمية في صحن إدوارد مضاعفة عن الكمية في طبقها، أحضرا أيضًا كعكة كرز، وجبنة شيدر، وشكولاتة بالنعناع، وضعا الأطباق على الطاولة بعد أن تمتما ببعض النصائح فيما يخصّ طريقة استعمال الجرس الذي كان قرب المدفأة –يجب الضغط عليه بقوّة فترة طويلة– ثم انسحب النادلان، مغلقَين الباب وراءهما بحرص شديد، سُمع بعد ذلك صوت الطاولة ذات العجلات تُدفَع مبتعدة في الرّدهة، ثم بعد صمت، تناهى إليهما هُتاف أو صراخ يأتي دون شك من حانة الفندق في الطابق الأرضي، وأخيرًا أمسى العروسان وحدهما تمامًا.

حمل إليهما الهواء الذي اشتدّ، أو غيّر اتجاهه، صوت الأمواج كأنه زجاج يتشظّى في البُعد، فيما الضباب ينحسر كاشفًا وراءه جزءًا من الهضاب التي تزيّن الشاطئ جهة الشمال، يمكنهما رؤية

اللّون الرمادي المضيء برقّة، مشكّلًا سطح البحر الشاسع أو امتدادًا للبحيرة، أو أفقًا للسماء.. من الصعب فصل بعضها عن بعض.

حمل النسيم المتغير الغوايةَ معه عبر النوافذ الفرنسية المواربة، والرائحةَ المالحة العالقة بالأوكسجين، والمدى المفتوح، كانا يبدوان على خلاف مع مفرش الطاولة، والحساء، والسكاكين الفضية اللّامعة التي كانا على وشك استعمالها، وجبة عشاء ليلة الزواج كانت وفيرة ومديدة، لكنهما لم يكونا يشعران بالجوع، نظريًّا، كان يمكنهما ترك الأطباق في مكانها وأخذ زجاجة النبيذ والنزول هرولة نحو الشاطئ، كي يتخلّصا من نعليهما ويتنعّما بحريتهما، لا يستطيع أحد في الفندق أن يوقفهما، فقد أصبحا شابين بالغين في عطلة أخيرًا، حرّين في التصرف وفق ما تمليه رغباتهما، بعد بضع سنين أخرى، سوف يتصرف كثير من الشباب العاديين بهذا الشكل دون الخوف من المساءلة، لكن في هذا العصر، الزمن هو سجنهما، حتى عندما كان إدوارد وفلورنس وحدهما، تستمر آلاف القواعد غير المعلنة قيد التطبيق، يجب عليهما الأخذ بها دون النزول إلى مستوى التصرّفات الصبيانية، فهما بالغان الآن، الأمر أشبه بالامتناع عن النهوض عن طاولة طعام وسط وجبة كان الآخَر قد تعب في إعدادها، برغم ذلك، السّاعة الآن هي ساعة العشاء، والظهور بمظهر صبيانيّ لم يكن محبّذًا، ولا مُسايرًا لهوى العصر.

استحوذ القلق على إدوارد من النداء القادم من جهة الشاطئ، ولو كان يعرف كيف يبرّره أو يبوح به لتصرف بطريقة أخرى، لكان اقترح الخروج فورًا دون انتظار، مثلًا، لقد قرأ لفلورنس بصوت عالٍ مقاطع من دليل سياحيّ عن عاصفة هوجاء هبّت في زمن

مضى على هذا المكان، كنسَت الحصى وانسحبت على طول ثلاثين كيلو متر من الشاطئ، مخلّفة وراءها كمية كبيرة من الحصى كبيرة الحجم جهة الشرق، وبحسب الأسطورة، فإن الصيادين المناوبين تلك الليلة قرب الشاطئ كانوا يعرفون تمامًا أين توجد تلك الحصى الكبيرة، اقترحت فلورنس أن يتحقّقا من الأمر بأخذ عيّنة من الحصى ومقارنتها بأخرى على بُعد كيلومتر واحد، كان من الأفضل لو أنهما سارا على طول الشاطئ بدلًا من البقاء جالسين هنا.

السّقف كان منخفضًا إلى حدّ ما، فبدا قريبًا من رأس إدوارد ويوشك أن يُطبق عليه، فاحت من طبقه رائحة دبقة كأنها أنفاس كلب العائلة، مختلطة بهواء البحر الواسع، لابّد أنّه يشعر بسعادة أقلّ ممّا توقّعه، فقد شلّ ضغط هائل أفكاره وأبطأ من نُطقه، وشعر بإحساس هائل بالضيق، كما لو أن بنطاله أو لباسه الداخلي قد ضاق عليه.

لذا، لو ظهر ماردٌ على رأس طاولتهما كي يُلَبّي أكثر أماني إدوارد عُجالةً، فلن تكون تلك الأمنية أن ينتقلا للسّير على طول الشاطئ، فلم يكن يفكر إلّا في شيء واحد، أن يُمسي مع فلورنس عاريين فوق سرير غرفة النوم في الجوار، أن يجابها في النهاية هذه التجربة المهيبة التي بدت بعيدة جدًّا عن الحياة اليوميّة، أشبه بتخيّل نشوة راهب، أو إحساس الموت نفسه، هل هذا حقًّا ما سوف يحدث؟ معه هو؟ هذا هو الاحتمال، انتابته رعشة جديدة أسفل بطنه، استسلم فترةً قصيرةً للحظة تخيّلٍ أخفاها وراء ابتسامة مرح.

مثل أغلب الشبان في عصره، أو أيّ عصر آخر، من الذين لم يملكوا موهبة الإغراء أو أيّ وسيلة أخرى لإطلاق العنان لحياتهم

الجنسية، مارسوا –مثل إدوارد– بانتظام ما كان يسمّى في ذلك الوقت "إمتاع النفس".

اكتشف إدوارد هذا التعبير كنوع من العزاء، فقد وُلد عام 1940، في وقت متأخّر من القرن العشرين ليعتقد أنه يؤذي جسده بذلك الفعل، كأن يضعُف بصره، أو أن الله يراقبه بنظرة قاسية عندما يخضع بشكل يومي لهذا الفعل، أو أن يخاف اكتشاف الناس من حوله حقيقة ما يفعل من خلال شحوبه وشخصيّته المنغلقة، برغم ذلك، ثمّة عار غير محدّد يخيّم على جهوده، إحساس غامض بالخجل والفشل والضياع، وبالوحدة دون شك، في الواقع كان للمتعة تأثير ثانويّ، فالهدف الحقيقي منها هو إشباع شهوة ملحّة واستفزازية لشيء لا يمكن الوصول إليه فورًا، كم كان غريبًا، حيث بإمكان كمية صغيرة من السائل المنوي المتدفق من جسده أن تُحرّر ذهنه فورًا، ليواجه قرار نيلسون بشأن خليج أبي قير في دراساته التاريخيّة.

اقتصرت مشاركته في حفل الزواج على التواري عن الأنظار أسبوعًا كاملًا، لم يحصل معه قط أن كان بهذه العفة مع نفسه منذ أن بلغ الثانية عشرة من عمره، احتفظ بنفسه من أجل زوجته الشابة، ولم يكن الأمر سهلًا على الإطلاق، خاصّة وهو في السرير ليلًا، أو في الصباح لحظة الاستيقاظ، أو خلال فترات ما بعد ظهيرة طويلة، أو خلال الساعات التي تسبق وجبة الغداء، أو خلال ساعات ما قبل النوم، ها هما الآن متزوجان، وأصبحا وحيدين أخيرًا، لمَ لا ينهض تاركًا طبق اللحم على الطاولة، ليغطي جسد فلورنس بالقبلات ويقودها نحو السرير ذي الأعمدة في الغرفة المجاورة؟ لم يكن هذا أمرًا بسيطًا، فمنذ وقت قليل كان يصطدم بخجلها، وقد انتهى به

الأمر ليس إلى احترامها فقط، بل إلى تبجيلها عند رؤيته قسمات الخَشية على وجهها، ووشاح التقاليد المُخفية للغرائز الجنسيّة بكلّ جدارة. حسنًا، هذا جزء معقد وعميق في شخصيتها، ودليل على منزلتها الرفيعة، تخيّل أنه ربما يفضّلها هكذا، دون أن يبوح حقيقة بالأمر، فتحفّظها يناسب تمامًا جهله الخاص وفقدانه الثّقة بنفسه، بينما لو كانت امرأة أكثر تطلّبًا وشهوانيّة وتحرّرًا، لأرعبته حتمًا.

بدا غزلهما أشبه برقصة بطيئة، أو احتفال رسمي، بطيء بُطء بروتوكول لم يوقّع ولم يُشَر إليه مطلقًا، لكنه مرصود بشكل عام، لم يناقشا أيّ شيء حول الأمر، كما أنهما لم يشعرا بنقص في تبادل الأحاديث بحميمية، في ذلك العصر، استعصت تلك المواضيع على الكلمات والتعاريف، وكانت لغة العلاج الصحيح وأساليبه غير معروفة، لا توجد مصطلحات عاطفيّة لتبادلها وفهمها فهمًا مشتركًا وتحليلها، ليست شائعة على الأقل، وعندما يُسمع مصادفة عن بعض الأغنياء أنهم يزورون محلّلين نفسيّين، فلم يكن المرء العاديّ مُعتادًا على اعتبار نفسه لغزًا يتوجب فهمه وحلّه كل يوم، أو سيرةً ذاتيّة، أو مشكلة تحتاج إلى إصلاح.

لم تسِر الأمور قط بسرعة بين إدوارد وفلورنس، فالمحاولات المهمة، والوعود المقطوعة بصمت، للذهاب بعيدًا إلى ما يسمونه الحقّ في الملاطفة والملامسة، لم تكن قد حصلت إلّا تدريجيًّا، حين رأى نهديها عاريين للمرة الأولى، في يوم أحد من شهر أكتوبر، انتظر عدّة أسابيع قبل أن يتسنّى له لمسهما في التاسع عشر من ديسمبر، وتقبيلهما في فبراير الذي يليه، لكن ليس على الحلمتين اللتين لمسهما بشفتيه مرة واحدة في شهر مايو، وهي في المقابل لم تسمح لنفسها باكتشاف جسده

إلّا في حِرص شديد، كان لحركة مفاجئة أو طلب جريء تدمير أشهُر من الجهود التي بذلاها معًا، كما حدث في تلك الأمسية في السينما أثناء مشاهدة فيلم "طعم العسل" حين أمسك يدها ووضعها بين فخذيه، أعادتهما هذه الحركة عدة أسابيع إلى الخلف، لم تصبح بعدها باردة جنسيًّا، أو متعالية –لم يكن ذلك من عادتها– لكنها بدت بعيدة إلى حد ما، ربما شعرت أن أملها قد خاب، أو غُدر بها، فتدبرت أمرها كي تحافظ على مسافة بينها وبينه دون أن تجعله يشكّ لحظة واحدة في حُبّها، ثم في النهاية عادت الأمور إلى طبيعتها بينهما.

عندما كانا وحدهما في ظهيرة يوم سبت من أواخر شهر مارس، وفيما المطر ينهمر في الخارج على نوافذ الصالون الفوضويّ في كوخ صغير لعائلة إدوارد في هضاب تشيلترن، وضعت يدها لحظة قصيرة على عضوه، أو بشكل أدق بالقرب منه، وفي أقل من خمس ثوانٍ، بنشوة وبأمل يتصاعد، شعر أنها تخترق طبقتين من القماش، عندما سحبت يدها، عرف أنه انتظر ما يكفي من الوقت كي يطلب يدها للزواج.

لم يكن يتخيل كم كلّفتها حركة يدها تلك –ظاهر يدها– في ذلك المكان تحديدًا، كانت تحبه، وأرادت أن تسعده، فاضطرت أن تتغلب على اشمئزاز انتابها بشدة، كانت تلك محاولة صادقة –قد تكون ذكية لكن دون دهاء– تركت يدها في مكانها أطول مدة ممكنة حتى شعرت بشيء يتحرك ويقسو تحت قماش بنطاله القطني رمادي اللون، كان أشبه بمخلوق حيّ منفصل عن إدوارد الذي تحبه، أعقبت محاولتها بحركة تراجُع، في ذلك الوقت طلب يدها للزواج دون تفكير، أمام اندفاع الانفعالات والفرح والبهجة والارتياح والمعانقة المتعاقبة،

نسيت مرحلة صدمتها الصغيرة، وهو كان مذهولًا جدًّا بمبادرتها وأصيب بتشويش ذهني أمام الرغبة المعلقة، حيث كان بإمكانه أن يتصور التناقض الذي وقعت فيه فلورنس منذ ذلك اليوم، وتلك العلاقة السرّية بين الشعور بالقرف والفرح.

***

كانا وحدهما إذن، ويتمتعان بالحُريّة نظريًّا ليفعلا أيّ شيء، لكنهما تابعا تناول هذا العشاء الذي لم يشعرا بأيّ شهيّة نحوه، وضعت فلورنس السكين من يدها، وأمسكت يد إدوارد وضغطت عليها، وصل إلى مسمعهما صوت مذياع من الطابق الأرضي، وأجراس بِغ بِنْ عند بدء نشرة الساعة العاشرة ليلًا، كان من الصعب التقاط البث التلفازيّ بسبب التلال الداخليّة في هذا الجانب من الشاطئ، لابدّ أن المسنين في الطابق الأرضي يستمعون إلى المذياع في الصالون، بعضهم مع كؤوس الخمر –يقدّم الفندق تشكيلة كبيرة من أنواع النبيذ الصافي المعتّق– وبعضهم الآخر يحشون آخر غليون لهم هذا اليوم، يجتمعون حول المذياع القديم لأجل سماع النشرة الرئيسة، استمرّت هذه العادة معهم منذ زمن الحرب، ولم يستطيعوا التخلّي عنها أبدًا، سمع إدوارد وفلورنس عن بُعد عناوين النشرة، وتعرفوا على اسم رئيس الوزراء ثم بعد دقيقة أو اثنتين سمعا صوته المألوف وهو يقدّم خطابًا، كان هارولد ماكميلين يخاطب الكونغرس في واشنطن حول سباق التسلّح النووي والحاجة إلى معاهدة حظر شامل له، كيف كان بالإمكان إغفال الجنون في متابعة اختبار القنبلة

الهيدروجينية ضمن الغلاف الجوّي وتعريض الأرض للإشعاعات؟ لكن لا أحد تحت عمر الثلاثين –في كل الأحوال هذا لا يتضمن فلورنس وإدوارد– يمكنه تصديق أن رئيس الوزراء لديه سيطرة أكثر على الشؤون العالميّة، الإمبراطورية تتقلّص عامًا تلو آخر كلّما أعلنت إحدى الدول عن أحقيّة استقلالها، في الوقت الراهن لا يوجد هناك شيء تقريبًا، وها هم الرّوس والأمريكان يتقاسمان العالم، لم تعد بريطانيا العظمى اليوم إلّا قوة ثانويّة، هذه الكلمات سبّبت لغطًا كان أقرب إلى الشتيمة منه إلى الابتهاج، المتواجدون في الطابق الأرضي كانت لديهم وجهة نظر مختلفة دون شك.

مَن تجاوز منهم الأربعين عامًا كان قد قاتل أو تألّم خلال فترة الحرب، ويعرف الموت معرفةً لا مثيل لها، ولم يكن يقبل أن يرى بلاده تغوص في المجهول بحجّة التّوبة لأجل العديد من الضحايا.

ذهب إدوارد وفلورنس ليصوّتا للمرة الأولى في الانتخابات التشريعية، وتوقّعا انتصارًا ساحقًا لحزب العمّال يضاهي انتصار عام 1945، بعد عام أو اثنين سوف يرضخ الجيل القديم الذي لا يزال يحلم بالإمبراطورية ويجب أن يستسلم ليُخلّي المكان لسياسيّين مثل جيتسكل، وويلسن، وكروسلاند.. رجال جدد مع رؤية جديدة لدولة حديثة، حيث يكون العدل والإصلاحات الضرورية هي الهدف، وإن كان بإمكان أمريكا أن تنتخب رئيسًا جذّابًا وديناميكيًّا مثل كيندي، فلا شيء يمنع بريطانيا العظمى من أن تقوم بالمثل، على الأقل نظريًّا، بما أنه لم يكن هناك رجُل فاتن واحد في حزب العمّال، أمّا بالنسبة إلى الأشخاص السذّج الذين لا يزالون يؤمنون بالحرب، ويتأسفون على النظام والخسارات، فقد انتهى زمنهم.

تشارك إدوارد وفلورنس إحساس أن بلادهم على وشك التغيّر إلى الأفضل، حيث طاقات الشباب تدفعه نحو النجاة، مثل بُخار تحت الضغط، مختلطًا بالإثارة لتجربتهم المثيرة معًا، لقد شكّلت فترة الستينات الحقبة الأولى لحياتهما كراشدين وكانا ينتميان إليها بشدة، أما مدخّنو الغليون في الطابق الأرضي بستراتهم ذات الأزرار الفضيّة، وجرعاتهم المضاعفة من مشروبهم كاوْل إيلّا، وذكرياتهم عن ريف شمال أفريقيا وعن النورماندي، واستبسالهم في حصد ما تبقى لديهم من رطانة عسكرية، كلّ ذلك.. لم يعد لديهم الحقّ بتاتًا في المستقبل، إنّه الوقت، أيّها السّادة، رجاءً.

بينما كان الضباب ينقشع كاشفًا عن أشجار قريبة وشاطئ صخري أخضر وعارٍ خلف البحيرة، وبعض الأجزاء من بحر لامع، جرى هواء المساء اللطيف حول الطاولة، وتابعا تظاهرهما في تناول الطعام، محتجزَين داخل قلقهما الخاص، حرّكت فلورنس طعامها في الطبق وهي شاردة، وأكل إدوارد قطعة صغيرة من البطاطا التي قطعها بطرف شوكته، استمعا بيأس إلى القسم الثاني من النشرة القادم من المذياع، مدركَين التطابق الذي يُظهرانه بانضمام انتباههما إلى انتباه نزلاء الطابق الأرضي.

إنها ليلة زفافهما، ولم يجدا ما يقولانه، بذل الاثنان جهدهما لتمييز كلمات غير واضحة كانت تتصاعد تحت أقدامهما من المذياع، فَهِما بصعوبة كلمة "برلين"، وعلما فورًا أن الأمر بخصوص الواقعة التي يتحدّث عنها الجميع مؤخّرًا، عن نجاح محاولة فرار من برلين الشرقيّة إلى القسم الغربي بفضل قارب بخاريّ مخطوف في منطقة وانسي الألمانية، اختبأ اللاجئون خلف قمرة القيادة كي يتفادوا

رصاص حرس ألمانيا الشرقية، أصغى إدوارد وفلورنس إلى ذلك كلّه، والآن، وسط صمت لا يُحتمل، استمعا إلى تقرير النشرة الإخبارية الثالث الذي خُصّص لليوم الأخير للمؤتمر الإسلامي في بغداد.

سجنا نفسيهما في الشؤون الدولية الراهنة جرّاء حماقتهما، هذا يكفي، آن وقت التحرّك، أعاد إدوارد ترتيب ربطة عنقه كما يجب، ووضع بتصميم الشوكة والسكين حول طبقه.

"باستطاعتنا الذهاب إلى الطابق الأرضي لنستمع بشكل أفضل".

أراد من ذلك أن يُلقي دعابة بالسّخرية من نفسه ومنها معًا، لكن كلماته انطلقت بشراسة باغتته، جعلت فلورنس تحمرّ خجلًا، اعتقدت أنه يوبّخها لأنها تفضّل المذياع عليه، وقبل أن يكون لديه الوقت الكافي ليلطّف الجوّ أو يُبطل مفعول تعليقه، أجابته بسرعة فيما تُبعد عن جبينها خصلة شعر وهميّة: كي تبرهن أنّه على خطأ: "وباستطاعتنا أيضًا الذهاب والاستلقاء في السرير".

عرضت عليه ما كانت تعلم أنه يرغب فيه تمامًا، وما أفزعها هي أشدّ الفزع، في الحقيقة ستكون أكثر سعادة، أو ربما أقلّ تعاسة، إن هي نزلت لقضاء السهرة في الصالون، تثرثر مع من تراه من نسوة عجائز، جالسات على أريكة قماشية بنقشها المُزهّر، بينما أزواجهن مأخوذون بالأخبار وقلق التاريخ، أيّ شيء إلّا هذا الذي هي فيه الآن.

وقف زوجها في الجهة المقابلة للطاولة يبتسم، مادًّا نحوها يده بحركة احتفالية، بدا الخجل على محيّاه، فيما تعلّق منديل الطعام حول خصره لحظات كالوزة، قبل أن يسقط ببطء على الأرض، لا شيء في استطاعتها فعله غير التظاهر بالإغماء، لكنه كان تصرّفًا متعذّرًا الآن، نهضت وأمسكت بيده الممدودة نحوها، واثقة أن

مواصلة ابتسامتها كان أمرًا غير مُقنع.

لن يساعدها في شيء إن علمت أن إدوارد، وهو في حالة تشبه السّكْر، لم يكن قد رآها مطلقًا بهذا الجمال، كان الأمر يخصّ ذراعيها –سيتذكّر هذا لاحقًا– هاتان الذراعان الهزيلتان الحساستان اللتان كانتا على وشك تطويق عنقه بحُبّ، وعيناها العسليتان الجميلتان، المضيئتان بعاطفة لا يمكن إنكارها، ورعشة شفتها السفلى الشاحبة التي كانت على وشك ترطيبها بطرف لسانها في تلك اللحظة.

حاول بيده الخالية أن يرفع زجاجة النبيذ والكأسين شبه المتلئين في الوقت نفسه، لكن الأمر كان صعبًا للغاية، وشبه مستحيل، فاصطدم الكأسان ببعضهما وتشابكت قاعدتاهما في راحة يده وانسكب النبيذ، قبض على الزجاجة من عنقها في نهاية الأمر، برغم رهبته وحالته العصبية، أعتقد أنه تفهّم تحفّظها المعتاد، السبب الآخر الذي جعله مبتهجًا هو أنهما سيواجهان معًا هذا الوقت العصيب من وجودهما، في الواقع، فلورنس هي من لمّحت بالذهاب إلى السرير، فتغيير وضعها قد أطلق حريّتها، دار حول الطاولة وهو لا يزال ممسكًا يدها، ثمّ اقترب منها ليقبّلها، وخوفًا من أن يبدو خشنًا، وضع الزجاجة من يده على الطاولة.

"أنت جميلة جدًّا" همس قائلًا.

بذلت مجهودًا كبيرًا كي تتذكّر كم تحبّ هذا الرجل، إنّه لطيف، وحسّاس، ويحبّها، ولا يستطيع أن يؤلمها، تكورت بين ذراعيه، كانت قريبة من صدره واستنشقت رائحته المألوفة، التي غالبًا ما منحتها الطمأنينة.

"أنا سعيد أنني هنا، قُربك" قال لها.

أجابته بصوت منخفض "أنا سعيدة أيضًا".

عندما تبادلا القبلات شعرت بلسانه مباشرة مشدودًا وقويًّا، يندفع مارًّا بأسنانها مثل مشاكس يدفع بكتفيه باب فصل، فراح لسانها يُصارع غريزيًّا، متراجعًا باشمئزاز، تاركًا الملعب فارغًا أمام إدوارد، مع ذلك، كان يعلم جيّدًا أنها لا تفضّل هذا النوع من القُبل، وهو لم يكن قط حازمًا، أطبقت شفتاه على شفتيها، استكشف فمها البضّ ثم تحرّك داخل أسنان فكّها السفلي، إلى المكان الذي منذ ثلاث سنوات مضت، بزغ فيه ضرس من أضراس العقل بشكل منحرف، فخلعته في عمليّة تخدير كامل، كانت غالبًا ما تمرّر لسانها في ذاك التجويف حين تشرُد في أفكارها، تراه شيئًا أقرب إلى التجريد منه إلى الواقعيّة، فهو أكثر من مجرّد تجويف داخل لثّتها، إنّه مكان خياليّ يخصّها، ومن الغريب أن تجد لسانًا آخر قادرًا على التجول هناك أيضًا، في الواقع، تلك المنطقة الرّفيعة القاسية لهذه العضلة الغريبة التي تنتفض بالحياة، هي التي اشمأزّت منها.

ضغطت يده اليسرى أعلى عظمة كتفها، أسفل رقبتها مباشرة، وأحنت رأسها نحوه، تقاطع شعورها بفوبيا الأماكن المغلقة، مع شعورها بالاختناق، وفي اللحظة نفسها أصبحت أكثر تصميمًا على عدم الإساءة إليه، لأنها لن تحتمل تأنيب ضميرها بعد ذلك، كان لسانه تحت لسانها، يدفعه إلى أعلى سقف حلقها ثم أسفل، ثم يتركه ينزلق بسلاسة على طول الجانبين وحولهما، كما لو كان يعتقد أن باستطاعته أن يعقده، أرادَ أن يُشغل لسانها ببعض النشاط الخاص به، ويخدعه بعمل ثنائيّ صامت، لكنها استطاعت أن تتوقع فقط، أن تركّز في ألّا تُقاوم، ألّا تصاب بالهلع، ماذا لو تقيّأت في فمه! فكّرت بهلع،

سيشكّل ذلك نهاية زواجهما فورًا، وستعود إلى منزلها وتشرح موقفها أمام والديها، كانت تعلم تمامًا أن حكاية الألسن هذه، وهذا الولوج، لم يكن غير تكرار مصغّر للوحة حيّة، طقس شعائري كان ينتظرها، مقدمة مسرحية تُفصح عمّا يجب أن يحدث.

أحاطت فلورنس بيديها شكليًّا وركّيْ إدوارد، في انتظار أن تنتهي هذه اللحظات الخاصة، أدركت أنها تتعثر بحقيقة كانت خالية من المعنى حتى الآن، لكنها ستتضّح بجلاء في وقت لاحق، حقيقة بدائية للغاية وقديمة مثل الضرائب، أو "حقّ السيّد"، وتقريبًا لتحديد شيء جوهريّ، هو أنها عندما قررت أن تتزوج، وافقت على أنه من المناسب القيام بذلك، بل أن يحدث في الواقع على وجه التحديد.

عندما اقتربت هي وإدوارد ووالداها، الواحد تلو الآخر، من هيكل الكنيسة بعد انتهاء مراسم الزواج للتوقيع على وثيقة تحمل اسمَيهما، كان حدوث هذا هو ما يوقّعان عليه، وكلّ ما عداه من وعود الالتزام وحلوى الزفاف وقالب الكعك، هي مجرّد تمويه مهذّب لما سيحدث، فإن لم يكن هذا قد أعجبها، فما عليها سوى أن تلوم نفسها فقط، لأن كل الخيارات التي اتخذتها خلال السنوات الماضية هي التي قادتها إلى هنا، إنه خطؤها بالكامل، وها هي الآن تعتقد بالفعل أنها سوف تتقيّأ.

عندما سمعها تئن، أدرك إدوارد أن سعادته اكتملت تقريبًا، شعر بإحساس من انعدام توازن ممتع، كما لو أنّه يقف مرتفعًا عن الأرض بضع سنتيمترات، وهكذا سيعلوها مبتهجًا، هناك شكلٌ للسعادة كامن في الألم، يُدركه الآن، فشعر أن قلبه ارتفع لينبض في حلقه، ابتهج لملامسات خفيفة من أصابع فلورنس قُربَ أريبّته،

لاستجابة جسدها الرائع وهو يطويه بين ذراعيه، لصوت لهاثها المتسارع المتّقد من منخريها الذي قاده إلى نشوة غريبة باردة ولاذعة أسفل أضلعه، لطريقة لسانها وهو يغلّف لسانه برقّة عندما كان يدفعه تجاهه، ربما كان في استطاعته أن يقنعها إلى حدّ ما –وقد يُسقط أمر إقناعها هذه الليلة فقط– أن تأخذ قضيبه بين شفتيها الناعمتين، لكن كان يجب عليه أن يُبعد هذه التهويمات عن خياله، خوفًا من أن يستمتع ويقذف بسرعة، شعرَ أنه بدأ فعلًا يحرّكه نحو فضيحة، في هذه اللحظة فقط فكّر في الأخبار، وفي وجه رئيس الوزراء، هارولد ماكميلان، رجل طويل محني الظهر، ذو هيئة فظّة مثل بطل حرب، أو حاجز قديم، كلّ شيء بدا مرحًا إلى حد بعيد ما عدا الجنس، وكان هذا هو المطلوب.

من ناحية تقليص العجز الاقتصادي ووقف زيادة الرواتب وارتفاع الأسعار، اتّهم بعضهم رئيس الوزراء بأنه رخّص الإمبراطورية، لكنه لم يكن يملك خيارًا آخر أمام رياح التغيير التي كانت تعصف بأفريقيا، لم يكن في استطاعة أيّ سياسيّ من حزب العمّال أن يتجاوز مثل هذه الرسائل، وفي ليلة سُمّيت "أمسية على حدّ السكين" فُصل ثلث الوزراء بكُلّ جُرأة، صار لقب رئيس الوزراء هو ماك القاطع، وتحوّل هذا اللقب مع الاستخدام اليومي إلى ماكبث فرفعت التسمية من شأن الاسم الآخر.

اشتكى بعض الأشخاص المطّلعين ممّا يمكن أن تخفيه الأُمّة تحت غطاء الظهور المفاجئ لأجهزة التلفاز والسيارات والمتاجر الكبيرة، وأشياء أخرى ثانوية، كان يقدّم للأهالي ما هُم في حاجة إليه، من الخبز إلى أمور الترفيه، إنها أُمّةٌ جديدة، وها هم الآن على وشك

الدخول إلى المنظومة الأوروبية، فمن يمكنه القول متيقّنًا إن الرئيس كان مخطئًا؟

أخيرًا هدأت تخيّلات إدوارد وتلاشت، فعاد ليركّز مرة أخرى على لسانه، طرف لسانه بالذات، في اللحظة نفسها التي قررت فيها فلورنس أنها لم تعُد تحتمل المزيد، شعرت بنفسها سجينة، كانت تغرق وتشعر بالاختناق، والاشمئزاز، ثم تناهى إلى سمعها صوت أخذ في الارتفاع تدريجيًّا، لم يكن شبيهًا بالسلّم الموسيقي، لكنه انسياب بطيء، ليس صوت كمان تمامًا، وليس صوتًا عاديًّا، إنما هو بين الاثنين تقريبًا، كان يتصاعد ويتصاعد بشكل لا يُطاق، دون أن يتوقف عن كونه مسموعًا، صوت الكمان الذي أوشك على إيصال المعنى ليخبرها عن أمر طارئ بأحرف صامتة وصوتيّة أكثر بدائيّة من تلك الأحرف المشكّلة للكلمات، ربما كان ذلك الصوت يدوي في الغرفة أو في الرّواق، أو فقط في أذنيها مثل طنين، ربما كان الصوت ينبعث منها فقط، لم تكن مهتمّة، يجب عليها التخلص منه.

أدارت رأسها وتحرّرت من عناق إدوارد، تفرّس في وجهها مندهشًا ومتسائلًا، أمسكت يده وجرّته نحو السرير، شكّل هذا انحرافًا نحو الأسوأ من ناحيتها، كان تصرّفًا أحمق منها، بما أنها كانت ترغب في الهرب من الغرفة، لتجتاز الحدائق، وتنزل المنحدر كي تذهب وتجلس وحيدة على الشاطئ.

كان لمجرّد دقيقة واحدة من التوقّف أن تساعدها، لكن إحساسها بالواجب كان قويًّا بشكل مؤلم، ولم يكن في استطاعتها مقاومة ذلك، ولا تحتمل فكرة التخلّي عن إدوارد، كما أنها تحمل قناعة تامّة أن الخطأ كلّه يقع على عاتقها، فلو استطاع أقرباؤها

والمدعوون والأصدقاء الذين حضروا الزفاف أن يتواجدوا هنا بطريقة ما، غير مرئيّين في الغرفة لرؤية هذا المشهد، لكانت هذه الأشباح قد تحالفت مع إدوارد، ومع رغباته الطبيعية الملحّة، وسيفترضون أن هناك شيئًا ما غير طبيعي يكمن داخلها، وسيكونون محقين في ذلك.

عرفت أيضًا أن تصرّفها مُثير للشفقة، ولكي تتهرّب من اللحظة المخيفة القادمة بات عليها أن تُزايد، أن تنتقل إلى المرحلة التالية، فقامت بترك انطباع في نفسه عن نفاد صبرها – رغمًا عنها، لا يمكن تجنّب المشهد الأخير إلى الأبد، كانت اللحظة تتصاعد نحو اتّحادهما معًا، فيما هي تكابد التحرّك نحوها بحماقة، رأت نفسها قد وقعت في فخّ ضمن لعبة لم تكن تعرف مناقشة قوانينها، أصبح الهرب من الدوّامة التي تبتلعها مستحيلًا، وقف إدوارد في أقصى الغرفة، باتجاه باب غرفة النوم المفتوح، في مواجهة السرير الضيّق ذي الأعمدة، وغطائه الأبيض الناعم، لم تخطر لها أدنى فكرة عمّا يجب أن تفعله الآن، لكن ذلك الصوت المقيت توقّف على الأقل، وخلال تلك الدقائق القليلة التي كانت تلزمها للوصول إلى السرير، سوف تستعيد لسانها وفمها من جديد وأنفاسها، ومحاولة القبض على زمام نفسها مرّة أخرى.

الفصل الثاني

كيف التقيا؟ ولمَ كان هذان العاشقان، في عصرهما الحديث، بريئين وخجولين؟ لم يؤمنا بالقدر، ما شكّل مفارقة كبيرة لهما، إذ إن لقاءهما القصير كان عَرَضيًّا وينبني على مئات الخيارات المُتاحة والصُّدَف الصغيرة، يا له من احتمال مخيف، احتمال أن لقاءهما لم يكن ليحدث أصلا، استغربا، في اندفاعة حُبّهما الأولى، كيف كادت طُرُقهما تتقاطع في أوّل مراهقتهما، حين كان إدوارد يغادر كوخ عائلته البعيد القذر في أعلى تلال تشيلترن ذاهبًا إلى مدينة أكسفورد حيث تتردّد فلورنس أيضًا، أثارهما الاعتقاد أن أحدهما ربما تجاوز الآخر أو سار حوله أثناء أحد الاحتفالات المليئة بالشباب في المدينة، خلال معرض القديس جايلز في أوّل أسبوع من أشهُر سبتمبر مثلًا؛ أو مهرجان مايو مورننغ الذي يُقام فجرَ الأوّل من أشهُر مايو (مهرجان سخيف ومبالغ فيه، اتّفقا حول ذلك)؛ أو أثناء استئجار مركب نهريّ للتنزّه في نهر تشيرويل – برغم أن إدوارد لم يقم بذلك سوى مرة واحدة؛ أو في أواخر مراهقتهما، في شارع تورل، حيث يذهب مَن هو في عمرهما –دون السّن القانونيّة– لشُرب الخمر؛ أو خلال تلك المرة الوحيدة التي تسلّل فيها مع مراهقين آخرين في سنّ الثالثة عشر إلى حافلة طلّاب ثانوية أكسفورد، حيث واجهتهم فتيات الحافلة باختبار في الثقافة العامة، فتيات كُنّ متمكّنات وضليعات مثل سيّدات راشدات، ربما كانت حافلة مدرسة أخرى؟ لم تحمل فلورنس أيّ ذكرى مشابهة، لكنها لم تُنكر حُبّها لتلك المواقف والمساهمة فيها،

وهكذا، كلّما استعرضا ذكريات طفولتهما في أكسفورد، تبيّن لهما أن طرقهما كانت تتقاطع.

بعد ذلك مرّت فترة طفولتهما وسنوات دراستهما، واختار كلاهما العيش في لندن سنة 1958– التحق هو بالكُلّيّة الجامعيّة، وهي بكُلّيّة الموسيقى الملكيّة، وهكذا صار من الطبيعي ألّا يلتقيا، عاش إدوارد مع عمّة أرملة في بلدة كامدن، ويذهب بالدراجة الهوائية كل صباح إلى بلومزبيري، كان يدرس طوال النهار، ويلعب كرة القدم في نهاية الأسبوع، ويشرب البيرة مع زملائه، ولطالما أبدى رغبة في الشجار خارج الحانة التي يشربون فيها مرارًا، ولم يتوقّف عن ذلك إلا بعد شعوره بالحرَج من نفسه، كانت إحدى هواياته المنتظمة الاستماع إلى الموسيقى، إلى ذلك النوع من الحزين المتذبذب الذي بدأ كمُحرّك رائد وحيويّ لموسيقى الروك آند رول، هذه الموسيقى في نظره، طوال حياته، أفضل بكثير من أناشيد الدقائق الثلاثة الطفولية في ليفربول التي كانت ستأسر العالم بعد سنوات قليلة، غالبًا ما ينصرف من المكتبة ليلًا من أجل المشي في شوارع أكسفورد إلى نادي هانذرِد لسماع أغنية "باور هاوس فور" لجون مايويل، أو أغاني أليكسِس كورنر، أو بارين نايت، أثناء سنوات الدراسة الثلاثة، مثّلت لياليه في نادي هانذرِد قمّة تجربته الثقافية، واعتقد لسنوات أن تلك الموسيقى هي التي شكّلت ذائقته، وحياته أيضًا.

الفتيات اللواتي عرفهن –على قلّتهن– يسافرن من الضواحي من أجل تلقّي المحاضرات في المدينة، ويغادرنها آخر الليل تحت وصاية مشدّدة من آبائهن للعودة قبل السادسة مساءً، ودون أن يعبرن عن ذلك، كنّ يوحين بانطباع واضح مفاده أنّهن "يحفظن

أنفسهن" من أجل زوج المستقبل، لم يكن هناك أيّ غموض، فالقيام بعلاقة جنسية مع أيّ واحدة منهن تعني الزواج بها، هناك عدد من الأصدقاء، لاعبي كرة قدم محترمين، نهجوا ذاك المسلك، فتزوّجوا خلال السنة الدراسيّة الثانية واختفوا عن الأنظار، وحدث أن أحد أولئك الأصدقاء غير المحظوظين أصبح أمثولةً شائعة بينهم، حكاية تحذيرية للبقيّة، تسبّب هذا الصديق غير المحظوظ في حمل فتاة من مكتب إدارة الجامعة، فجرى "سحبه إلى المذبح" في نظر أصدقائه، ثم اختفى سنة إلى أن شوهد في شارع هاي بوتني، وهو يدفع عربة أطفال، الأمر الذي كان مُشينًا بالنسبة إلى رجل في تلك الحقبة.

حبوب منع الحمل كانت مجرّد إشاعة في الصحف، وعدًا سخيفًا، وخرافة من الخرافات القادمة من أمريكا، إن الموسيقى الحزينة التي يستمع إليها إدوارد في نادي هانْدرِد أوحت إليه بأن جميع الشبّان الذين في عمره، أولئك الذين لا يراهم، يستمتعون بحياة جنسية جيّدة ومتوقّدة، غنيّة بكلّ أشكال المُتَع، وكانت موسيقى البوب عاديّة جدًّا ومحتشمة في تلك الحقبة، والأفلام كذلك، لكن كان الرجال في محيط إدوارد سعداء بحكاية القصص الوقحة، والتفاخر بالجنس المؤقت والصداقات الحميمة القوية التي يسبّبها السُّكر الشديد، ما قلّل فرصَهم المستقبلية في الالتقاء بفتاة ما، ولم يكن التغيير الاجتماعي يسير بشكل متوازن، تقول الإشاعات أن في قسم اللغة الإنجليزية وعلى طول الطريق المؤدي إلى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية وأسفل طريق كينغزواي في مدرسة لندن لعلوم الاقتصاد، رجالا ونساءً يرتدون بناطيل جينز سوداء ضيّقة وسترات سوداء طويلة العنق، يمارسون الجنس بشكل مستمر وسهل دون أن

يلتقي أحدهما والدَي الآخر، هناك إشاعات أيضًا عن انتشار سيجار القنب الهندي، أحيانًا كان إدوارد يقوم بجولة استكشافية من قسم التاريخ إلى قسم اللغة الإنجليزية بأمل أن يعثر على الجنة في الأرض، لكنّه وجد أن الممرات، ولوحات الإعلانات، وحتى النساء أنفسهن، لم يختلفن عمّا اعتاد عليه.

عاشت فلورنس في الجانب الآخر من البلدة، بالقرب من قاعة ألبرت الملكيّة للموسيقى، في سكن قديم خاص بالطالبات، حيث تنطفئ الأنوار في الساعة الحادية عشرة، ويُمنع الزوار الذكور من الدخول في جميع الأوقات، حيث تطلّ الفتيات دومًا من نوافذ الغرف، اعتادت فلورنس حينئذ على خوض تدريبات موسيقيّة خمس ساعات في اليوم، والذهاب مع صديقاتها إلى حفلات موسيقية، وكانت تفضّل سماع العزف المنفرد في المقام الأوّل، خصوصًا موسيقى الرباعيّات الوتريّة، في صالة وِيغْمُور التي ترتادها أحيانًا خمس مرّات أسبوعيًّا، حفلات الظهيرة والليل أيضًا، أحبّت ظُلمة الصالة الموحية بالخطر، وجدران مسرحها الخلفيّ المتقشر الباهت، وخشبها اللامع، وبساط مدخلها شديد الحمرة، وصالة العرض الأشبه بنفق منحدر، والقبة البارزة التي تعلو المسرح، إنّ تصميم الصالة يعبّر عن الجوع الإنسانيّ لتجريديّة الموسيقى العظيمة، هكذا قيل لها، وقد حوَت على كرة ناريّة أبديّة معلّقة تمثّل تجانس الألحان العبقري، قدّسَت فلورنس كبارَ السّن، الذين يستغرق نزولهم من سيارات الأجرة على باب الصالة دقائق طويلة، آخر الفيكتوريّين، يعرجون بعكازاتهم صوب مقاعدهم، لكي يستمعوا بصمت نقديّ متيقّظ، فاردين على رُكَبهم أحيانًا أغطية صوفيّة مقلّمة يجلبونها معهم، هؤلاء الأشخاص

بهياكلهم المترهّلة المنكمشة يمشون ببطء نحو المسرح، ويشكلون بالنسبة إلى فلورنس فرصة لصقل موهبتها، والإنصات إلى حكم رزين حولها، إنهم يمثّلون خبرة موسيقية لا تقوى على إظهارها أصابعهم التي أمست ملتهبة المفاصل، أحبّت في الصالة أيضًا حقيقة أن جميع الموسيقيّين العالميّين قد سبق وقدّموا موسيقاهم فيها، وأن انطلاقتهم المهنيّة بدأت على مسرحها، لقد سُمعت عازفة التشيلّو، جاكلين دو بريه، في السادسة عشرة من عمرها في هذا المكان، مُقدّمةً أولى حفلاتها الموسيقية، كانت ذائقة فلورنس عادية، لكنها متوهجة، وقد استهوتها مقطوعة بيتهوفن "أوبيس 18" زمنًا طويلًا، ثم رباعيّته الأخيرة، وكذلك شومان، وبرهام، وأخيرًا رباعيّة فرانك بريدج وبارتوك وبريتن، كانت تستمع إلى هؤلاء الملحنين خلال سنواتها الثلاث الأخيرة في صالة وِيغْمُور.

في السنة الثانية، توظّفت بدوام جزئي في المسرح الخلفي، تُعدّ الشاي للفنانين الجالسين في الغرفة الخضراء الواسعة، وتربض خلف ثقب الباب لكي تفتحه للفنانين الذين يغادرون المسرح، وتقوم أيضا بلفّ الأوراق لعازفي البيانو في القطع الموسيقية الصغيرة، وفي إحدى الليالي، جلست بجانب بنيامين بريتن في برنامج غنائيّ يقدّمه هايدن فرانك بريدج وبريتن نفسه، كان أحد الأولاد يغني بصوت عالٍ، فضلا عن بيتر بيرز، الذي أعطاها ورقة نقدية من فئة عشرة شلن عندما كان يهمّ بالمغادرة مع الفنانين الكبار، اكتشفت أن غرفة التدريبات تقع في الجوار، تحت غرفة عروض البيانو، حيث كان يؤدي عازفو البيانو العظام مثل جون أوغدون وتشيركاسكي إيقاعاتهم ويسترسلون على وتيرة حماس طلاب السنة الدراسية الأولى نفسها،

أصبحت الصالة عبارة عن بيتها الثاني، تعشق كل ركن مظلم وباهت فيها، حتى فوق الأدراج الإسمنتية الباردة المؤدية إلى دورات المياه، أُنيطَ بها أيضًا مهمّة ترتيب الغرفة الخضراء، وليلة ما، لاحظت بعض القطع الغنائية المكتوبة بقلم رصاص مُلقاة في سلة المهملات، كان قد رفضها الرباعيّ أمادوس، أصبحت يدها ثقيلة ومتصلّبة، بالكاد تمكنت من قراءة الخطّ، وانتبهت إلى أن الأمر يتعلّق بالحركة الافتتاحية لرباعية سكوبرت رقم 15، لقد شعرت بالسعادة عندما تمكنت من فكّ شفرة الخطّ في النهاية "عند النغمة ب نباشر"، لم تتمكن فلورنس من التوقف عن اللعب بفكرة أنها وقعت على رسالة مهمّة أو حافز قوي، وبعد مرور أسبوعين، وبعد سنتها الأخيرة بقليل، اقترحت على ثلاثة من أفضل طلاب الكلية الانضمام إلى فرقتها الرباعية.

الرجل الوحيد في الفرقة هو عازف التشيلّو، لكن تشارلز رودوَي لم يشكّل لها أيّ اهتمام عاطفيّ، رجال الكليّة نذروا أنفسهم للموسيقى، طموحون جدًّا، ولا يعيرون أدنى اهتمام لأيّ شيء يتجاوز آلتهم الموسيقيّة وتاريخها، وبمجرّد أن تخرج فتاة مع طالب ما بشكل منتظم، فإنها تختفي عن أشكال الحياة الاجتماعية الأخرى كافة، كما حدث مع أصدقاء إدوارد في لعب كرة القدم، يبدو الأمر وكأن الفتاة تدخل منعزلًا رهبانيًّا، وبما أن الخروج باستمرار مع صبيٍّ ما والاحتفاظ بعلاقة نشِطة بالأصدقاء كانا أمرين مستحيلين معًا، فقد فضّلت فلورنس البقاء مع صديقاتها في سكن الطالبات، أحبّت المزاح، والصداقة المقرّبة، والمودّة، وكيف تُعامل الفتيات بعضهن بعضًا في أعياد ميلادهن، وذلك الركض مع وسادة ماء ساخنة وأغطية وبعض الفاكهة عندما تُصاب إحداهن بالأنفلونزا، والشجار اللطيف حول

الأباريق، سنوات الكليّة هي فترة حريّتها القصوى.

أصبحت خرائط سَير إدوارد وفلورنس في لندن تتداخل فيما بينها، عرفَت القليل عن حانات فيتزورفيا وسوهو، إذ برغم تردّدها عليها، فهي لم تزر أبدا غرفة القراءة الخاصة بالمتحف الإنجليزي، إدوارد لم يكن يعلم أيّ شيء عن صالة وِيغْمُور أو غرَف الشاي في مقر عملها، ولم يذهب إلى حديقة هايد بارك، ولم يستقلّ أيّ قارب على نهر سربنتين، أثارهما مُلاحظة أنهما تواجدا قُربَ ميدان ترافلجار في الوقت نفسه سنة 1959 مع عشرين ألف متظاهر يطالبون بمنع استخدام القنبلة النووية.

***

لم يلتقيا إلا بعد انتهاء دراستهما في لندن، عندما عاد كلّ منهما إلى منزل والديه وهدوء مرابع الطفولة، ليقضي أسبوعًا أو اثنين من الرتابة في انتظار نتائج الاختبارات، فيما بعد، فتَنهما ذلك الأمر كثيرا – أن اللقاء لم يحدث عفويًّا، فبالنسبة إلى إدوارد، أمْكَن لهذا اليوم أن يمرّ مثل بقية الأيام – أن يعود إلى آخر الحديقة الضيّقة للجلوس على كرسيّ نَدِيّ تحت ظلّ شجرة دردار عملاقة ليقرأ، مُبتعدًا عن أنظار والدته التي تكون عادة على بُعد خمسين ياردة، تُراقبه من وراء زجاج نافذة المطبخ أو عند نافذة غرفة الجلوس عشرين دقيقة متواصلة، حاول أن يتجاهلها، لكن نظرتها كانت تشبه لمستها فوق عنقه أو كتفه، بعد ذلك يستمع إليها تعزف بتعثّر إحدى مقطوعات آنّا ماجدولينا على آلة بيانو في الطابق العلوي،

وهي المقطوعة الوحيدة من الموسيقى الكلاسيكية التي يعرفها، وبعد مرور نصف ساعة، ربما تعود إلى النافذة لكي تحدق إليه مرّة أخرى، لم تخرُج أبدًا لكي تتحدّث إليه عندما تراه يقرأ كتابًا، قبل سنوات مضت، عندما كان إدوارد تلميذًا، راح والده يحثّها بصبر ألّا تعيق ابنها أثناء مذاكرة دروسه.

ذلك الصيف، بعد الامتحانات النهائية، أصبحت اهتماماته تتجه إلى ثقافات العصور الوسطى الأصولية وزعمائها المتوحشين المرضى نفسيًّا، الذين كانوا يظنون أنهم يمثّلون المسيح، قرأ حينها كتاب نورمان كوهن "ملاحقة الألفيّة" للمرة الثانية خلال سنة، دافعه وراء ذلك هو صور نهاية العالم التي قرأها في سِفْر رؤيا يوحنا وسِفْر دانيال، مقتنعًا بأنّ البابا كان في حقيقته مناهضًا للمسيح، ولهذا فإن نهاية العالم قريبة والأطهار وحدهم سوف ينجون؛ وأن مجموعات من المتمرّدين سوف يجتمعون بالآلاف ليعبروا الريف الألماني بلدةً بلدة ليذبحوا اليهود حيثما وجدوهم مع القساوسة وبعض الأغنياء، بعد ذلك، تُخمد السلطات تلك الحركة بعُنف، وتظهر طائفة أخرى في مكان مغاير بعد سنوات قليلة، ولبلاهة حياته وهدوئها، قرأ إدوارد تلك الحركات العبثيّة المتكرّرة بشغف جارف مستفيدًا من كونه يعيش في عصر أصبح الدين فيه بلا معنى، كما أنه بدأ يتساءل إن كان في مقدوره التقديم لدراسة الدكتوراه، لو كشفت اختباراته عن نتائج جيّدة، ستكون حماقات العصور الوسطى موضوع أطروحته.

وأثناء التجول عبر غابة أشجار الزان، بدأ يحلم بسلسلة من السّير الذاتية القصيرة التي سوف يكتبها عن شخصيات غير معروفة عاشت قُربَ مراكز الأحداث التاريخية، سوف يكون أولهم السيد

روبرت كاري، الذي انتقل من لندن إلى إدنبُرغ في غضون سبعين ساعة لكي ينقل خبر وفاة إليزابِث الأولى إلى وريثها جيمس السادس في أسكتلندا، كاري شخصية مهمّة، ولقد اعتاد على كتابة مذكّراته بانتظام، حارب الأسطول الحربي الإسباني، وكان سيّافًا رائعًا، وعرّاب رجال اللورد شامبرلين، كما ظنّ أن رحلته الشّاقة نحو الشمال سوف تمنحه ترقية من الملك الجديد، لكن بدلًا من ذلك طاله نوع من التهميش النسبي.

خلال أمزجته العاديّة، يتبنّى إدوارد رؤى أكثر واقعيّة، يفكّر في وظيفة أفضل تتمثّل في تدريس مادة التاريخ في أحد المدارس اللغوية، حريصًا على تجنّب الخدمة الوطنيّة العسكريّة.

عندما ينتهي من القراءة، يتجوّل في المضمار على طول شارع أشجار الليمون، ثم يذهب إلى قرية باتجاه الشمال، حيث يعيش سايمون كارتر، أحد أصدقائه أثناء الدراسة، لكن خلال هذا الصباح المميز والمثقل بالكتب وتغريد العصافير وهدوء الريف، استقلّ إدوارد دراجته الهوائية الثلاثية الطفولية من تحت السقيفة، ثم رفع مقعد الدرّاجة ونفخ العجلات وسار في وجهة غير محددة، حمل معه ورقة نقدية من فئة جنيه واحد ونصف في جيبه، وكان همّه هو التحرّك إلى الأمام، وبسرعة تُعتبر متهوّرة، فمكابح الدرّاجة مهترئة، دخل النفق الأخضر، ثم أسفل التلّ المنحدر بمحاذاة منزل بالْهَام، متجاوزًا مزرعة ستراسي، ثم إلى وادي ستونر، وعندما مرّ بالقرب من السكك الحديدية للمتنزّه، قرّر أن يُتمّ الرّحلة إلى هينلي على بُعد أربعة أميال أخرى، عندما وصل إلى البلدة، توجّه إلى محطة القطار بنيّة غامضة للذهاب إلى لندن من أجل البحث عن أصدقائه، لكن القطار الذي

وجده واقفًا كان سيتّجه عكس اتّجاهه، نحو أكسفورد.

بعد مرور ساعة ونصف من ركوب القطار، بدأ يتسكع في مركز مدينة أكسفورد في حرارة الظهيرة، وهو لا يزال يشعر بالملل والغضب من نفسه لتضييعه المال والوقت، كان يعتبر هذا المكان عاصمته المحليّة، والتي تُعتبر مكان أحلامه المُثيرة كلّها، لكن بعد لندن، بدت له كأنها مدينة ألعاب، مزدحمة وريفية وسخيفة في غرورها، وعندما تجهّم في وجهه أحد الحُرّاس، الذي يرتدي قبّعة عند مظلّة مدخل الكلية، تراجع إلى الوراء ليتحدث معه، لكنه قرر بدل ذلك شراء مشروب والاستمتاع به، فاتّجه نحو سانت جايلز والى إيغل آند تشايلد، في تلك الأثناء رأى إعلانًا بخطّ اليد يدعو إلى اجتماع وقت الظهيرة يتعلّق بالحملة المحلية لنزع السلاح النووي، ثم أصيب بالارتباك، لم يكن يحب هذه الاجتماعات الجديّة كثيرًا، كما أنه لا يحبّ المآسي الشخصيّة ولا الحِداد الحزين، كانت الأسلحة بطبيعة الحال فظيعة ويجب إيقافها، لكنه لم يتعلّم أيّ شيء جديد في أيّ من الاجتماعات التي حضرها، برغم أنه كان عضوًا يدفع ثمن عضويّته، فلم يكن لديه أيّ شيء يقوم به، سوى شعور غامض بالمسؤولية، كان من واجبه المساعدة في إنقاذ العالم.

سار على طول الممر المكسوّ بالحجارة ودخل إلى صالة مظلمة، كان سقفها المصبوغ يحتوي على إضاءة ضعيفة، ورائحة ورنيشٍ خشبٍ كنَسيّ، وغبار، وتتصادى في السقف أصوات واهنة متنافرة، وعندما اعتادت عيناه العتمة، كان أول شخص يراه إدوارد هي فلورنس، واقفة عند الباب وتتحدث إلى زميل ذي وجه شاحب هزيل يحمل حزمة منشورات، كانت ترتدي فستانًا أبيض يلمع مثل

فستان سهرة، وحزامًا جلديًّا أزرق ضيّقًا يلتفّ حول خصرها بثبات، ظنّ للوهلة الأولى أنها ممرّضة، فقد رأى أن الممرضات يُثرن الشهوة الجنسية بشكل طبيعي وغامض – إنّه يُحبّ الخيال إذن – لقد علمن شيئًا بخصوص جسده وحاجياته، عكس معظم الفتيات، اللواتي كُنّ يحدّقن إلى الشوارع أو المحلات ولم ينظرن بعيدًا أبدًا، كانت نظرة فلورنس ساخرة أو هزلية، وربما مملّة، وتبحث عن التسلية، بدا وجهها غريبًا وجميلًا بالتأكيد، لكن بطريقة منحوتة وقوية العظام، في ظلمة البهو كانت قوة الضوء الفريدة من إحدى النوافذ على يمينها تجعل وجهها يبدو كالقناع المنحوت، كانت ودودًا وهادئة ويصعب معرفة ما تفكّر فيه، لم يتوقف عند دخوله الغرفة، بل سار نحوها دون أدنى فكرة عن الشيء الذي سوف يقوله لها، ففي مسألة العثور على كلمات أولى يفتتح بها حوارًا مع أيّ شخص، كان إدوارد مُريعًا.

رأته يقترب، وعندما أصبح قريبًا بما يكفي، أخذت منشورًا من حزمة منشورات صديقها وقالت "هل ترغب في واحدة؟ إنه يشرح النتائج التي من الممكن أن تحصل فيما لو سقطت إحدى القنابل فوق أكسفورد".

عندما أخذه منها، لامست سبابة فلورنس باطن يده، لم يكن لهذا أيّ علاقة بالمصادفة، قال "لا أرغب في قراءة المزيد".

تبدّت على زميلها ملامح الحقد لما سمعه، وانتظر بصبر نافد لحظةَ انصراف إدوارد، لكن إدوارد بقي مكانه دون حركة.

***

لم تشعر فلورنس أيضًا بالرّاحة في مرابع طفولتها بعد عودتها من لندن، منزلهم فيكتوريّ كبير على الطراز القوطي خارج طريق بانبوري بمسافة خمس عشرة دقيقة سيرًا على الأقدام، والدتها فيوليت، التي قضت الوقت تصحّح أوراق الاختبارات النهائية في الأجواء القائضة – وتضيق ذرعًا من سماع تدريبات فلورنس اليومية، الألحان والنوتات والتدريبات المتكررة، واختبارات الذاكرة، كانت فيوليت تصف ما تفعله فلورنس بكلمة "صراخ" كما في عبارة "عزيزتي، أنا لم أنتهِ بعد من عمل اليوم، هل يمكنك أن تؤجّلي صراخك إلى ما بعد ساعة الشاي؟"

يُفترض بتلك العبارة أن تكون مزحة من باب التحبّب إلى الآخر، لكن فلورنس المتوتّرة ذاك الأسبوع على غير عادتها، فهمتها دليلًا على حقيقة معارضة والدتها مهنَتها الموسيقيّة، وعدائها تجاه الموسيقى، أيْ تجاه فلورنس نفسها، كانت تعلم أنه من الواجب عليها أن تعتذر لوالدتها التي تسمع الألحان ولا تتعرف على أيّ لحن، إنها لا تميّز لحن النشيد الوطنيّ إلا من خلال سياقه لحظةَ إنشاد عبارة "عيد ميلاد سعيد"، كانت مثل أولئك الذين لا يميزون بين النغمات المرتفعة وبين المنخفضة، لم يكن هذا الأمر يقلّ عن الإعاقة الجسدية، أو الكارثة الطبيعية، مثل قدم مشوّهة أو شفة مشرومة، لكن بعد الحرية النسبية في كينسِنغتون، أصبحت فلورنس تشعر بأن الحياة في المنزل جائرة، فلم تتمكن من كبح عواطفها، على سبيل المثال، لا تهتم بترتيب سريرها كل صباح – كانت تقوم بذلك في السابق – وأصبحت تكره أن تُسأل عن ذلك وقت تناول الإفطار.

يحدث لها غالبًا، في فترة غيابها عن البيت، أن يظهر والدها

من بين عواطفها المتصارعة، عاشَت معه أوقاتًا كان حضوره الجسديّ فيها يشكّل عبئًا لا تحتمله، صلعة رأسه اللامعة ويداه الصغيرتان البضّتان، وخططه المتذبذبة من أجل تطوير تجارته وربح مزيد من المال، صوته مرتفع، متملّق سُلطوي، يشدّد على نطق بعض الأحرف دومًا، كرهَت الاستماع إلى تقاريره الحماسية عن القارب ذي اللقب السخيف "قطعة السكّر" الذي يتركه في ميناء بول، ضايقتها أحاديثه عن أنواع جديدة من الأشرعة مثلًا، أو مذياع للسّفن الساحليّة، أو صبغة جديدة تخصّ اليُخوت، كان يأخذها معه أثناء نزهاته، وفي مرّات عدّة، في عمر الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، قطعا معًا المسافة التي تفصلهما عن كارتريت بالقرب من تشيربورغ، لم يتحدثا أبدا عن تلك الرحلات، ولم يطلب منها الخروج معه مرة أخرى، وسُرّت بذلك، لكن في بعض الأحيان، وبسبب دافع الحماية والحب، كانت تأتي من خلف مكان جلوسه وتضم ذراعيها حول عنقه وتقبّل أعلى رأسه وتلمسه بأنفها، كانت تحب رائحته النظيفة، تقوم بهذا كله ثم تشمئزّ منه لاحقًا.

أختها الصغرى أيضًا كانت توتّر أعصابها عبر حديثها بلهجة كوكني الجديدة، وغبائها فيما يتعلق بالعزف على البيانو، كيف يمكنهما القيام بالشيء الذي طلبه والدهما وتشرعان في عزف لحن سوسا العسكري، عندما تدّعي روث أنها لا تستطيع حساب الإيقاعات في الحانة؟

برعَت فلورنس في إخفاء مشاعرها عن عائلتها – لم يتطلّب الأمر منها أيّ مجهود يُذكَر، تنصرف من الغرفة متى أمكنها ذلك دون إثارة الانتباه، وتشعر بالسعادة فيما بعد كونها لم تقل أمرًا يسبب

المرارة لوالديها أو يجرح أختها، وإلا فسوف تسهر طوال الليل من تأنيب الضمير، تذكّر نفسها مرارًا بحبها لوالديها، وتأسّر نفسها في الصمت بشكل فعّال، كانت تعلم جيدًا أن الناس يُخرِجون ما في صدورهم، بشكل عنيف، ثم يكفّرون عن ذلك فيما بعد، لكنها لم تكن تعلم كيف تبدأ – لم تتحلّ بفنّ إثارة النقاش الذي من شأنه تلطيف الأجواء، ولم تستطع أن تؤمن بأن الكلمات الجارحة يمكن أن تُنسى، ولذلك فضّلت أن تجعل الأمور أبسط، مكتفيةً بلوم نفسها عندما تشعر أنها أشبه بشخصيّة كارتونية في الصّحف، يخرج الدخان من أذنيها.

حملَت مخاوف أخرى أيضًا: هل يتوجب عليها الذهاب إلى وظيفة المسرح الخلفي مع الأوركسترا الإقليمية؟ فلقد حسبَت نفسها من الفئة المحظوظة التي قُبلَت في سيمفونية بورنماوث، أم يتوجب عليها الاعتماد على والديها سنةً إضافية، على أبيها خاصة، وتشتغل على الرباعيّة كأوّل تعهّد لها بالاستقلال الذاتي؟ لكن ذلك يعني السكن في لندن، وهي لا ترغب في طلب مزيد من المال من جيوفري، لقد قدّم لها عازف التشيلّو، تشارلز رودوَي غرفة الضيوف الخالية في منزل والديه، لكنه كان زميلًا كئيبًا وصارمًا يدرس في مدرسة داخلية، وقدّم لها أيضًا آراء ثابتة ودالّة فيما يتعلق بالموسيقى، سوف تكون تحت رحمته أثناء السكن معه، علمت بوجود وظيفة بدوام كامل، إنها الوظيفة المناسبة التي كانت تطلبها، مع الثلاثيّ بالم كورت ستايل، في فندق رديء السّمعة جنوبيّ لندن، لم تكن في حيرة بشأن نوع الموسيقى التي سوف تعزفها هناك – لن يكون هناك أحد من أجل الاستماع إليها – لكن بعض الغرائز أو بعض الغرور أقنعها بأنها لن

تتمكن من العيش داخل أو بالقرب من كرايدون، أقنعت نفسها بأن النتائج التي حصلت عليها في الكلية ستساعدها في اتخاذ القرار، والشيء ذاته حدث لإدوارد، الذي يتواجد على بعد خمسة عشر ميلا في التلال الغابوية شرقًا، قضت أيامها داخل مكان يشبه غرفة الجلوس وهي تنظر بعصبية إلى بداية حياتها.

عادت من الكلية وتحوّلت من تلميذة إلى فتاة ناضجة بطرق لم يكتشفها أيّ أحد في المنزل، بدأت تكتشف فلورنس أن والديها يحملان آراء سياسية معارضة، وهنا على الأقل سمحت لنفسها بأن تفتح نقاش المعارضة على مائدة العشاء، كانت تلك النقاشات تجول طوال الليالي الصيفية، وباتت تنفيسًا عن الروح بشكل ما، لكن هذه الحوارات ألهبت فضولها العام، أولت فيوليت اهتمامًا جادًّا بعضويّة ابنتها في حملة نزع السلاح النووي، برغم أن فلورنس اعتبرت والدتها فيلسوفة أكثر منها ناشِطة، فلطالما وتّرها هدوء والدتها، وبشكل أدقّ، بسبب الحزن الذي تبديه عندما تسمع أنّ ابنتها في الخارج، ثم تبدي رأيها بخصوص ذلك، قالت إن الاتحاد السوفييتي مجرّد طغيان جائر، دولة قاسية وبلا قلب، سببت مجازر بشريّة على نطاق يفوق ما سببته النازيّة الألمانية، فضلا عن شبكات معسكرات الاعتقال السياسية السرية، مستمرّين في تجاربهم الصّورية، والرقابة، وتغييب الضوابط القانونية، لقد عبث الاتحاد السوفييتي بالكرامة الإنسانية والحقوق الأساسية، كان عبارة عن قوّة احتلال خانقة للأراضي المجاورة – احتفظت فيوليت بعلاقة قائمة مع بعض أصدقاء الدراسة من هنغاريا والتشيك – وكان يتوسع بدافع العقيدة، ولذلك يجب معارضته كما كان يفعل هتلر تمامًا، إن لم نستطع معارضته لأننا

لا نملك المدرعات والرجال للدفاع عن السهل الشمالي الألماني، فمن الواجب إيقافه على الأقل، بعد أشهر قليلة، سوف تشير فيوليت إلى بناء جدار برلين وتدّعي الدفاع الشامل – لقد أصبحت الإمبراطورية الشيوعية عبارة عن معتقل عملاق.

تؤمن فلورنس، في أعماق قلبها، بأن الاتحاد السوفييتي برغم أخطائه، وأساليبه العبثيّة وعجزه الدفاعيّ، لم يكن كيانًا شيطانيًّا، بل إنه قوّة مفيدة في العالم، لقد كان وما زال هدفه هو تخليص المظلومين والوقوف في وجه الفاشيّة وويلات الرأسمالية الجشعة، لقد شعرت بالاشمئزاز عند مقارنته بالنازية الألمانية، واكتشفت في آراء والدتها نمطًا معروفًا مؤيّدًا للنمط الأمريكي في الدعاية، كما أنها شعرت بخيبة أمل تجاه والدتها، وقالت ذلك مرارًا.

لكن والدها تبنّى أراء تتوقعها من كل رجال الأعمال، واختياره الكلمات يحتدّ قليلًا عند شُربه نصف زجاجة خمر، سوف يكون هارولد ماكميلين معتوهًا لو سلّم الإمبراطورية دون كفاح، أكثر من معتوه لأنه لم يعبّر عن معارضته للقيود على الرواتب في الاتحادات، وأبله إن ذهب إلى الأوروبيين وهو يحمل قبّعته في يده لكي يطلب الانضمام إلى اتحادهم الكارثيّ، وجدت فلورنس صعوبة كبيرة في معارضة جيوفري، لم تستطع أن تُبعد عنها شعورًا غامضًا بمساندته، فمن بين المزايا التي حصلت عليها في طفولتها هو ذلك الاهتمام الكبير الذي أولاها إيّاها والدها، والذي كان شائعًا أن يوجّه إلى الأخ الأصغر أو الابن.. فقد كان يأخذها في الصيف الماضي بشكل منتظم بعد العمل في سيارته الهامر لكي تتمرن على القيادة للحصول على الرّخصة في عيد ميلادها الواحد والعشرين، لكنّها فشلت في ذلك، من بين المزايا أيضًا

تلك الدروس التعليميّة للعزف على آلة الكمان في السنة الخامسة من عمرها، والدروس الصيفية في مدرسة خاصة، ودروس التزلّج وكرة التنس، ودروس الطيران التي رفضتها لعدم كفاءتها، ثم بعد ذلك رحلاتهما معًا وحدهما، التزلّج في جبال الألب، وجبال سيرا نيفادا، وبيريني، والرحلات الخاصّة، ورحلات الأعمال التي تستمرّ ليلة واحدة إلى المدن الأوروبية حيث كانت تقيم هي وجيوفري في أكبر الفنادق.

عندما غادرت فلورنس المنزل بعد منتصف النهار، وبعد نقاش صامت حول تفاهات الأعمال المنزلية – حيث إن فيوليت لم تحبذ الطريقة التي استعملت بها ابنتها غسالة الملابس – قالت إنها تودّ أن تبعث رسالة، ولذلك لن تتواجد على وجبة الغداء، استدارت جنوبًا في طريق بانبوري واتجهت إلى مركز المدينة وفي داخلها طموح غامض أثناء تجوّلها وسط السوق المسقوف، إذ ربما تصادف أحد أصدقاء الدراسة القدماء، أو تشتري لفافة حلوى وتأكلها في حديقة كنيسة المسيح تحت الظلال جوار النهر، عندما شاهدت لوحة كُتب عليها سانت جايلز، كالتي سيراها إدوارد بعد خمس عشرة دقيقة، تسلّلت إلى الداخل دون وعي منها، لقد كانت والدتها هي التي تشغل تفكيرها، وبعد قضاء كثير من الوقت مع صديقاتها الودودات في سكن الطالبات، لاحظت عند عودتها إلى المنزل المسافة التي تبعدها عن والدتها، فهي لم تقبّلها أو تعانقها أبدًا، حتى عندما كانت صغيرة، بالكاد لمستها فيوليت، ربما ذلك أفضل، فقد كانت فلورنس نحيفة وهزيلة ولم تكن تتأثر بالمداعبات، لكن فات الأوان الآن.

وبعد لحظات تحت أشعة الشمس ثم الدخول المفاجئ إلى بهو الكنيسة المُعتم، اتّضح لفلورنس أنها قامت بخطأ جسيم عندما

دخلت، ففي الوقت الذي قضته ليعتاد بصرها على العتمة، كانت تنظر حولها بطريقة لا مبالية تشبه النظر إلى أوانٍ فضيّة في متحف أشمولن، فجأة بزغ من العتمة شابّ من شمال أكسفورد، تعرفه لكنها لم تتذكر اسمه، نحيل في الثانية والعشرين من عمره ويرتدي نظارات، لفت انتباهها تلك اللحظة، ودون أيّ مقدمات، بدأ يسرد عليها التبعات المحتملة لسقوط قنبلة ذريّة على أكسفورد، تذكّرت أنه دعاها إلى منزله في بارك تاون قبل عشر سنوات، عندما كانا في الثالثة عشر من عمرَيهما، كان قريبًا على بُعد ثلاثة شوارع، عرض عليها الاختراع الجديد، جهاز التلفاز، لم يسبق لها أن رأته، احتوى على شاشة صغيرة مشوّشة رمادية محاطة بإطار له أبواب من خشب الماهوغاني، ويبرز فيه رجل يرتدي سترة سهرة عند مكتب ما أثناء عاصفة ثلجية، كانت فلورنس تظنه آلة غريبة الشكل وسخيفة ولا مستقبل لها، لكن منذ ذلك اليوم، بعد هذا الصبي – جون؟ دايفيد؟ مايكل؟ باتت مدينة له بصداقتها، ولا يزال إلى هذه اللحظة يطالب بدَيْنه.

كان يضع تحت إبطه مئتَي نسخة من منشوره الذي يختزل مصير أكسفورد لو سقطت عليها قنبلة ذريّة، أرادها أن تساعده في نشر هذه النسخ في أرجاء المدينة، عندما انحنى، أثار انتباهها رائحة ملمّع شعره التي التفّت حول وجهها، لبشرته الشبيهة بالرّق انعكاسات شاحبة في ذاك الضوء الخافت، وبدت عيناه كنقطتين سوداوين ضيّقتين من خلف الزجاج السّميك لنظّارته، لم تكن فلورنس تقوى على الوقاحة، لذلك خبّأت انزعاجها خلف تقطيب حاجبيها، متصنّعة الاهتمام، شعرت بشيء ما يفتنها في الشبّان طوال القامَة،

كيف تتحرّك عظامهم وتفاحة آدم تحت جلد حلقهم، ووجوههم التي تشبه العصافير، وسحنتهم المفترسة، القنبلة التي وصفها لها يبلغ طولها كيلومتر واحد، وعمق تجويفها مئة قدم، وبسبب الإشعاع النووي الناتج عنها، سوف تكون أكسفورد منطقة يُمنع دخولها فترة تُقارب عشرة آلاف سنة، كأنها وعد بالخلاص، لكن الحقيقة هي أن الزهور كانت تنبثق في المدينة المجيدة خلال بداية فترة الصيف تلك، الشمس تُدفىء حجارة كوتسولد الصفراء، وستغدو حديقة كنيسة المسيح في أبهج حُلّة، وهنا، في البهو، تبدّت لها خلف كتفَي الشّاب قامات تتحرّك وهمهمات في الظلام، وتجلس على الكراسي وتنهض، ثم ظهر إدوارد متّجهًا نحوها.

بعد عدة أسابيع، في يوم حار، ذهبا للتنزّه على مركب في مرفأ نهر تشيرويل، وجدّفا في اتجاه التيار نحو مغسكرات فيكي، ثم عادا مرة أخرى نحو المرفأ، وعلى طول مسارهما، قاما بالتوقف في مكان مملوء بأعشاب الزعرور واستلقيا على ضفة النهر تحت الظلال، كان إدوارد مستلقيًا على ظهره يمضغ ساقَ عُشب، فيما فلورنس تضع رأسها على ذراعه، وبعد انتهاء حوارهما، سمعا صوت الأمواج الصغيرة تصطدم بالمركب، ونقرًا مكتومًا يتردّد عند جذع الشجرة في ذلك الصباح، وفي مرّات عدّة، حملت إليهما النسائم الواهنة أصوات مرور العربات على طريق بانبوري، كان طائر السّمنة المغرد ينشد بدقة، ويكرّر كل جملة بحذر شديد، ثم يتوقف بعد ذلك لشدة الحرارة، انخرط إدوارد في عدد من الوظائف المؤقتة المختلفة، لكنه يعمل في الأساس حارسَ ملعب في نادي الكريكِت، أمّا فلورنس فقد كرّست وقتها كلّه من أجل الفرقة الموسيقية، لذا كان يصعب عليهما

دائما ترتيب أوقات لقاءاتهما، التي تبدو متكلّفة بالقدر نفسه، كانت هذه ظهيرة سبت منتزعة، ويعلمان أنه واحد من أيام فصل الصيف العاصفة الأخيرة – إنّه أوّل شهر سبتمبر ولا تزال الأوراق والأعشاب خضراء بشكل غامض، كما أن الجوّ لا يزال مرهقًا، عاد حوارهما مرّة أخرى لتناوُل تلك اللحظات التي غدت الآن أحداثهما الأسطورية الخاصة، عندما شاهدا بعضهما أوّل مرّة.

وجوابًا على السؤال الذي طرحه إدوارد قبل دقائق مضت، قالت فلورنس في النهاية "لأنك لم تكن ترتدي سُترة".

"ماذا يعني ذلك؟" قال.

"مممم، قميص أبيض فضفاض، والكمّ ملفوف إلى أعلى المرفق، وياقة القميص عالقة في الخارج.." أجابته.

"ذلك هراء" قال.

"وبنطال رماديّ خفيف ذو رقعة عند الركبة، وحذاء قذر بدأ بالتآكل عند الأصابع، وشعر طويل، يعلو أذنيك تقريبًا" تابعت.

"ماذا بعد؟" سألها.

"لأنك بدوتَ متوحّشًا قليلًا، كأنك في قتال" أجابته.

قال لها "لقد كنت على دراجتي الهوائية في الصباح".

رفعت جسدها على أحد مرفقيها لكي تتمكن من رؤية وجهه بطريقة جيدة، فتبادلا النظرات، لقد كان الأمر عبارة عن رواية وتجربة مريرة بالنسبة إليهما عندما ينظر أحدهما دقيقة واحدة في وجه شخص بالغ آخر، دون إحراج أو عائق، كما أنها تُعتبر المرّة الوحيدة التي اقتربا فيها من بعضهما بهذا القدر، فكّر إدوارد في علاقة جنسية، فسحبت ساق العشب من فمه.

"أنتَ مجرّد ريفي مرتبك".

"تابعي، ماذا بعد؟".

"حسنًا، لأنك توقفت في الممر ونظرت إلى الجميع كما لو أنك سيّد ذلك المكان، مغرور، لا، أقصد أنّك جريء".

ضحك من هذا، "لقد تضايقت من نفسي".

قالت فلورنس "رأيتَني إذن وقرّرت أن تحدّق إليّ من بعيد".

"ذلك ليس صحيحًا، لقد لمحتِني وقرّرتِ أنني لا أستحق نظرة مُدَة ثانية واحدة"

قبّلته، لم تكن جادة في ذلك، لكن من أجل مضايقته، أو أنه ظنّ الأمر كذلك، في الأيام الأولى هذه، اعتقد أن هناك فرصة صغيرة لتكون واحدة من تلكم الفتيات الأسطوريات اللواتي يسكنّ منازل رائعة ويعشقن الخروج معه طوال اليوم وفي أقرب وقت، لكن، بالطبع، ليس إلى الأماكن المفتوحة على طول هذا النهر الممتد.

سحبها نحوه حتى تلامست أرنبتا أنفيهما، وأصبح وجهاهما في الظل، ثم قال "هل تظنين أنه الحب من أوّل نظرة؟"

كان صوته منخفضًا وساخرًا، لكنها قررت أن تأخذ الأمر بجدية أكثر، لأن المخاوف التي سوف تواجهها لا تزال بعيدة على الرغم من أنها كانت تتساءل عن الوجهة التي كانت تقصدها بهذه العلاقة، قبل شهر مضى، اعترفا بحبهما لبعضهما، وكان ذلك الأمر مثيرًا حدّ أنه أيقظها في إحدى الليالي، وجلب لها خوفًا غامضًا جعلها تشعر بالعجز، كونها تركت نفسها تنقاد وتوافق على شيء مبهم لم تكن تملكه حقًّا، لكنه كان حديثًا جدًّا ومهمًّا جدًّا ويدعو إلى الإطراء كثيرًا، ويصعب مقاومته، كان الحب يمثل نوعًا من التحرّر، أو ما يشبه

ذلك، واستطاعت أن تسمح لنفسها بالتعمّق فيه كثيرًا، الآن على ضفة النهر، في الحرارة المخدرة لأحد أيام الصيف الأخيرة، استدعت تلك اللحظة عندما توقف إدوارد في مدخل الكنيسة، وركّزت على شعورها حينئذ عندما شاهدته وأحسّت به.

ولكي تساعد ذاكرتها، نهضت، ثم استقامت ونظرت إلى النهر الكسول الموحل الأخضر، وفجأة لم يعد النهر مسالمًا، رأت في أعلى النهر مركبين مليئين معقودين إلى بعضهما في زاوية مستقيمة، يحاولان الدوران عند المنحنى، وانطلق من المجدّفين ما يشبه صياح القراصنة وضرب المياه، لطالما كان طلّاب الجامعة واعين لحماقاتهم ويفعلونها عن قصد، الأمر الذي يذكّرها بضرورة الابتعاد عن هذا المكان، حتى عندما كنّ تلميذات، كانت هي وصديقاتها ينظرن إلى الطلاب كمصدر للإحراج ومجرّد صبيان دخلاء على مدينتهن.

حاولت التركيز أكثر، لم تكن ملابسه عاديّة، لكن الشيء الذي لاحظته حقًّا هو وجهه – وقور وبيضَويّ تام، بجبهة عريضة وحاجبين مقوّسين شديدَي السّواد، ونظرته الهادئة تلك التي أرسلها إليها عندما كان يجول بنظره في المكان لتستقرّ أخيرًا على فلورنس، كما لو أنه لم يكن في الغرفة بتاتًا، بل يتخيلها ويحلُم بفلورنس، وساعدتها ذكرياتها في إلباسه شخصيّة حتى قبل أن تسمع صوته، تعابير متحفظ ونبرة قرويّة، ولكْنةٌ قريبة من لكنة لندن المحليّة، مع لمحة من غرب البلاد.

استدارت مرة أخرى نحوه وقالت: "حملتُ فضولًا نحوك".

لكن ما حملته حقًّا كان شعورًا أكثر بساطة من الفضول، فحينئذ لم يخطُر لها حتى أن تُشبع فضولها، لم تظن أنهما قد يتقابلان، أو لم يخطُر لها أن تقوم بشيء ما لكي تجعل اللقاء ممكنًا،

بدا لها فضولها حينئذ لا يمتّ لها بصلة – بدا أنها هي التي لم تكن في الغرفة حقًّا، الوقوع في الحب كشف لها عن غرابة طبعها، كيف أن غرقها في أفكارها اليوميّة حجبها عن العالم، عندما يسألها إدوارد "كيف تشعرين؟" أو "بمَ تفكرين؟" كانت تقدّم إجابات غريبة، هل تطلّب منها وقتًا طويلًا اكتشاف أن تلك الحيلة الذهنية البسيطة التي يمتلكها الجميع كانت تنقصها؟ إنها آليّة بلغت من عاديّتها أن أحدًا لا يتحدث عنها، ذاك التعالق الحسّي الفوريّ بين الناس والأحداث، وبين الآمال والرغبات. عاشت سنواتها كلها منعزلة داخل نفسها، والأغرب أنها عُزلة عن نفسها أيضًا، الأمر الذي جعلها لا ترغب في النظر إلى الوراء أو تحتاج إليه. في البهو ذي الأرضية الصخريّة التي تُصادي الأصوات، ومع وجود الأضواء الباهتة الثقيلة، ظهرت كلّ مشاكلها مع إدوارد خلال الثواني الأولى تلك، أثناء أوّل نظرة تبادلاها.

***

وُلد إدوارد في يوليو سنة 1940، في الأسبوع الذي بدأت فيه معركة بريطانيا، سوف يخبره والده ليونيل لاحقًا أنه لمدة شهرين من ذلك الصيف حبس التاريخ أنفاسه لكي يقرر ما إذا سوف تكون لغة إدوارد الأولى هي الألمانية، وبحلول عيد ميلاده العاشر، اكتشف أن هذا التعبير كان مجرد طريقة في الكلام – استمر الأطفال في جميع أنحاء فرنسا المحتلة في التحدث بالفرنسية، كانت تيرفل هيث تبدو مثل مجموعة أكواخ متناثرة بشكل متباعد حول الغابات والأراضي المشاع أكثر من أن تكون قرية صغيرة، وقد انتشرت في أخدود واسع

فوق قرية تيرفل.

كانت الجهة الشمالية الشرقية من شيلترن قد تعرضت في نهاية الثلاثينات، وهي الجهة التي تمتد من لندن وتبعد حوالي ثلاثين ميلًا عنها، لغزو الزحف الحضري، أي إنها سبق وأصبحت جنة في الضاحية، لكن بالنسبة للجهة الجنوبية الغربية جنوبي بيكن هيل، حيث سيأتي يوم ويخترقها فيه سيل عارم من السيارات والشاحنات في خط مستقيم نحو مدينة بيرمنغهام، فلم يتغير الكثير.

بالقرب تمامًا من منزل آل مايهيو الريفي، أسفل طريق شديد الانحدار ومملوء بالحفر عبر غابات الزان، وعبر مزرعة سبيني، يقع وادي وورمزلي الذي وصفه أديب عابر بأنه مكان منعزل يفيض بالجمال، وامتلكته عائلة من المزارعين، آل فاين لعدة قرون، في عام 1940 كان المنزل الريفي لا يزال يحصل على الماء اللازم له من البئر التي كانت تُحمل الماء منها إلى العلية وهناك تصب في صهريج، كان الأمر جزءًا من تقاليد العائلة، إذ بينما راحت البلاد تتهيأ لمواجهة غزو هتلر، اعتبرت السلطات المحلية ولادة إدوارد حالة طارئة، أزمة تتعلق بالنظافة، وهكذا فقد أتى الرجال بالمعاول والمجاريف، وقد كانوا مسنين بغالبيتهم، وحفروا قناة من مياه شبكة القنوات الرئيسية إلى المنزل عبر طريق نورثند في شهر سبتمبر من ذلك العام، بالتزامن مع بدء الغارات الألمانية على لندن.

كان ليونيل مايهيو يشغل منصب مدير مدرسة ابتدائية في هينلي، ولطالما قاد دراجته في الصباحات المبكرة لخمسة أميال نحو عمله، بينما كان يعود أدراجه في نهاية اليوم وهو يجرها إلى جانبه إلى أعلى المنحدر الطويل نحو المرج وسلتها الأمامية تنوء بدفاتر الواجبات

المدرسية والأوراق.

حين ولدت التوأم في عام 1945 اشترى ليونيل سيارة مستعملة بأحد عشر جنيهًا من قرية كريسماس كامون من أرملة ضابط بحري فُقد في قافلة مرسلة إلى الأطلسي، في ذلك الوقت لم يكن المشهد مألوفًا بعد في تلك الأزقة الضيقة، سيارة ذات محرك تحشر نفسها لتتجاوز أحصنة الحرث والعربات، لكن التقنين النفطي كثيرًا ما أجبره على العودة إلى استعمال دراجته.

في بداية الخمسينات أصبحت عودته إلى المنزل بالكاد تشابه تلك الخاصة برجل محترف، كان يأخذ أوراقه مباشرة إلى الردهة الصغيرة قرب الباب الأمامي والتي أصبح يستعملها مكتبًا له ثم يخرجها بحرص.

كانت الغرفة الوحيدة المرتبة في المنزل وشعر بضرورة المحافظة على حياته العملية منفصلة عن أجوائه المنزلية، كان يتفقّد الأطفال بعد ذلك – ارتاد جميعهم في أوقات مختلفة، إدوارد، وآن، وهاربيت، مدرسة القرية في نورثيند، ومشى كل واحد منهم عائدًا وحده إلى المنزل.

كان يقضي بضع دقائق على انفراد مع مارجوري، ثم يذهب إلى المطبخ لإعداد الشاي وتنظيف بقايا الفطور، وهذه الساعة الوحيدة التي كان يحدث فيها أيّ عمل منزلي، أثناء طهو العشاء، حالما كبر الأطفال قليلًا، أصبحوا يساعدون في أداء الواجبات المنزلية لكن بشكل غير نافع، إذ إن الأرض المكشوفة التي لم تكن ترزح تحت أكوام من الخردة هي وحدها التي يتم كنسها، والأغراض الضرورية لليوم التالي – الملابس والكتب في الغالب – كانت تخضع للترتيب.

لم يرتب أحدٌ الأسرّة، نادرًا ما كانت تبدل ملاءاتها، ولم ينظف أحد مغسلة اليدين في الحمام قارس البرودة المكتظ – كان بمقدورك حفر اسمك بأظافرك في طبقة القذارة الرمادية المتراكمة، كانت صعوبة تلبية الأمور الأساسية وحدها كافية – جلب الفحم إلى موقد المطبخ، إبقاء النار مشتعلة في مدفأة غرفة الجلوس في الشتاء، الحفاظ على ملابس مدرسية شبه نظيفة للأطفال.

كانت فترة ما بعد الظهر من أيام الآحاد مخصصة للغسيل، ما يتطلب إشعال النار تحت القدر النحاسية، في الأيام الممطرة، كانت تنتشر الملابس التي في طور الجفاف فوق جميع مفروشات المنزل، لكن الكيّ كان يفوق إمكانيات ليونيل – كل الملابس تملّس باليد ثم تطوى، مرّت بعض الأوقات التي قدمت فيها الجارات بعض المساعدة المنزلية، لكن لم يطل بقاء أيٍّ منهن، كان حجم المهمة ضخمًا، ولدى كل واحدة منهن أسرّة لتعتني بشؤونها.

عادة ما تناول آل مايهيو عشاءهم على طاولة قابلة للطي من خشب الصنوبر، محاطة بالفوضى القريبة الموجودة في المطبخ، ولطالما أبقوا تنظيف الأطباق حتى وقت لاحق، بعد أن يشكر الجميع مارجوري على طهي الوجبة، كانت تنطلق للعمل على أحد مشاريعها بينما أبعد الأطفال الأطباق عن المائدة وجلبوا كتبهم إلى الطاولة لكتابة واجباتهم المنزلية.

أما ليونيل فقد كان يذهب إلى مكتبه لتصحيح كتب التمارين، والقيام ببعض المهام الإدارية والاستماع إلى الأخبار اللاسلكية أثناء تدخين غليونه.

بعد ما يقارب الساعة والنصف، كان يخرج لتفقد عملهم ثم

إعدادهم للنوم، لطالما قرأ لهم (لإدوارد والفتاتين) قبل النوم، قصصًا منفصلة، غالبًا ما كان الأطفال يغفون على أصوات تنظيفه للأطباق في الطابق السفلي.

كان رجلًا لطيفًا، مكتنز البنية، كما لو كان عاملًا في مزرعة، يمتلك عينين زرقاوين حليبيتين وشعرًا بلون الرمال وشاربًا قصيرًا على الطراز العسكري، كان أكبر من أن يُستدعى إلى الخدمة العسكرية فقد بلغ الثامنة والثلاثين عند ولادة إدوارد، نادرًا ما رفع ليونيل صوته أو صفع الأولاد أو ضربهم بالحزام كما فعل معظم الآباء الآخرين، توقّع منهم الطاعة وهم، ربما لأنهم شعروا بثقل مسؤولياته، انصاعوا لأوامره، لقد تعاملوا مع ظروفهم طبعًا كما لو كانت من المسلّمات، على الرغم من أنهم رأوا عددًا كافيًا من منازل رفاقهم – الأمهات اللطيفات ذوات المآزر وأركان منازلهن المرتبة بعناية، لم يشعر إدوارد وآن وهاريت بأنهم كانوا أقل حظًا من باقي الأولاد.

لكن ليونيل حمل العبء وحده، لم يفهم إدوارد حتى بلغ الرابعة عشرة وجود عيب ما في والدته، ولم يذكر الوقت تمامًا، ربما قرب عيد ميلاده الخامس، حين تغيرت بغتة، لقد كبر مثل أختيه على مفهوم الواقع العادي لاختلال عقلها، كانت جسدًا شبحيًا، جنية صغيرة نحيلة ورقيقة بشعر بني أشعث، تطفو عبر المنزل كما تطفو خلال سِني طفولتهم، تكون منطلقة وعاطفية في بعض الأوقات، وبعيدة في أوقات أخرى تستحوذ عليها هواياتها ومشاريعها.

يمكن سماعها في أيّ ساعة من النهار، وأحيانًا في منتصف الليل وهي تتحسس مفاتيح البيانو لتعبث بذات المقطوعات الموسيقية البسيطة، تتعثر طوال الوقت في الأماكن نفسها، غالبًا ما

أمضت وقتها في الحديقة تسلّي نفسها بالحوض الذي صنعته تمامًا في وسط المرج الضيق، وقد ساهم رسمها، خاصة بالألوان المائية – مشاهد التلال البعيدة وقمة الكنيسة محاطة بالأشجار الأمامية – بإضافة الكثير إلى الفوضى العامة، لم تغسل أيَّ فرشاة أو تفرغ المياه المخضرة من المرطبانات التي كانت في الأساس تحتوي المربى، لم تضع لوحاتها وخرقها جانبًا، أو تجمع محاولاتها العديدة معًا – والتي لم يكن أيٌّ منها مكتملًا، كانت ترتدي رداءها الواقي لعدة أيام مستمرة في كل مرة لوقت طويل بعد إهمالها للوحة التي تعمل عليها.

أحد نشاطاتها الأخرى – والذي قد يكون بدأ كاقتراح لعلاج انشغالي – كان قصّ الصور من المجلات وإلصاقها في دفتر قصاصات.

أحبّت التجول في المنزل بينما تعمل، وكانت قصاصات الورق المهمل تحت الأرجل في كل مكان، يطؤها الجميع في الطين وعلى ألواح الأرضيات العارية، وفراشي الصمغ المتصلبة في الأصص المفتوحة حيث تتركهم، وعلى الكراسي وأفاريز النوافذ.

كانت اهتمامات مارجوري الأخرى تشتمل على مراقبة الطيور من نافذة غرفة الجلوس، الحياكة والتطريز وتنسيق الزهور، تلاحقها جميعًا بالحدة الفوضوية الحالمة نفسها، كما كانت صامتة في الغالب، لكنهم كانوا يسمعونها تتمتم لنفسها في بعض الأوقات وهي تقوم بمهمة صعبة، "هيا الآن .. هيا ... هيا".

لم يخطر لإدوارد السؤال نفسه فيما إذا كانت سعيدة، كانت تمرّ بالتأكيد بلحظات من القلق وهجمات الهلع فيصبح تنفسها متقطعًا وتعلو ذراعاها النحيلتان وتهبطان على جانبي جسدها، ويصير كل تركيزها محصورًا بأطفالها، بحاجة معينة كانت

تعرف أن عليها تلبيتها على الفور، أظافر إدوارد التي طالت أكثر من اللازم، عليها إصلاح الثقب الموجود في الثوب، تحتاج التوأم إلى الاستحمام، كانت تهبط بينهم وهي تتأفف دون جدوى، تقرّعهم أو تضمهم إليها، تقبل وجوههم أو تفعل كل هذه الأمور دفعة واحدة، وكأنها تعوض الوقت الضائع.

كانوا تقريبًا يشعرون بالحب، وينصاعون لها بسعادة كافية، لكنهم يعرفون من خبرتهم أن واقع منزلهم لم يكن ليسمح بهذه الأمور – لا يمكن العثور على مقصّ تقليم الأظافر أو الإبرة والخيط، كما أن تسخين الماء للاستحمام يستلزم ساعات من التحضير.

سريعًا ما تنجرف والدتهم بعد ذلك عائدة إلى عالمها الخاص، قد تكون هذه النوبات نابعة عن شذرات من نفسها القديمة التي تحاول استعادة السيطرة، نصف مدركة لطبيعة حالتها، تستذكر بشكل خافت وجودها السابق وتلمح فجأة وبهلع مقدار خسارتها، لكنها في الغالب حافظت على اكتفائها عبر فكرة، قصة خيالية معقدة في الواقع، أنها كانت زوجة وأمًا متفانية وأن جميع أمور البيت سارت بسلاسة بفضل جهودها، أنها تستحق بعض الوقت الخاص بها بعد إنهائها لجميع واجباتها.

في سبيل التقليل من لحظاتها السيئة وعدم استثارة تلك المزق من وعيها السابق، تآمر ليونيل والأطفال للحفاظ على هذا الوهم، ففي بداية الوجبات، كانت ترفع وجهها بعد تأمل جهود زوجها في الطبخ ثم تقول برقة بينما تبعد خصلة شعر متمردة عن وجهها، "أتمنى أن تستمتعوا بالطعام، إنها وصفة جديدة لطالما أردت تجربتها".

دائما ما كانت الوصفة قديمة لأن ذخيرة ليونيل من الوصفات كانت محدودة، لكنّ أحدًا لم يعارضها، وفي نهاية كل وجبة، كما لو كان نوعًا من الطقوس، كان الأطفال والأب يشكرونها، كان الأمر وهمًا مريحًا لهم جميعًا.

حين تعلن مارجوري أنها تعد قائمة تسوق للتبضع من سوق واتلنغتون أو أن لديها عددًا من الملاءات التي تحتاج الكيّ أكثر مما يمكنها إحصاؤه، كان يبرز أمامهم عالم موازٍ من الطبيعية المشرقة، يستطيع كل فرد من العائلة لمسها.

لكن الخيال يبقى حيًا وحسب إنْ لم يناقشه أحد، لقد كبروا داخله، يقطنون سخافاته بحيادية لأن أحدًا لم يوضّح هذه السخافات.

لقد حموها بطريقة ما من الأصدقاء الذين جلبوهم إلى المنزل تمامًا كما حموهم منها، كانت النظرة المحلية المقبولة – أو التي سمعوها على الإطلاق – هي إن السيدة مايهيو مولعة بالفن، لا نمطية وساحرة، كما أنها على الأرجح عبقرية.

لم يحرج الأطفال إخبارها لهم بالأشياء التي يعرفون أنها لا يمكن أن تكون حقيقية، لم يكن لديها جدول نهار حافل، ولم تمض حقًا فترة ما بعد الظهيرة بأكملها وهي تصنع مربى التوت الأسود، هذه لم تكن أكاذيب بل مجرد طريقة تعبير عن ما كانته والدتهم في الحقيقة، وكان من الحتمي عليهم حمايتها – في صمت.

لذلك فقد كانت لحظات لا تنسى بالنسبة لإدوارد حين كان وحيدًا مع والده في الحديقة في سن الرابعة عشرة وسمع للمرة الأولى أن والدته كانت مصابة بتلف دماغي، كانت العبارة مهينة، دعوة

تجديفية للخيانة.

تلف دماغي، خطب ما في رأسها، لو أن شخصًا آخر قد تفوه بهذه الكلمات لوجد إدوارد نفسه ملزمًا بخوض شجار وتلقين أحدهم درسًا لا يُنسى، لكنه بينما استمع في صمت عدائي لهذا الافتراء، شعر بثقل يتزحزح عن صدره، بالطبع كان الأمر صحيحًا وليس في مقدوره دحض الواقع، وعلى الفور بدأ بإقناع نفسه أنه لطالما كان يعرف.

كان يقف ووالده تحت شجرة دردار كبيرة في يوم حارٍّ شديد الرطوبة من أواخر شهر مايو، بعد أيام من انهمار المطر، كان الهواء ثقيلًا ويعبق بغنى الصيف المبكر – صخب الطيور والحشرات، عبق العشب المجزوز والمصفوف على المرج أمام المنزل الريفي، تشابك الحديقة الكثيف المندفع، والذي لا يكاد يمكن فصله عن حدود الغابة خلف السور الفاصل، غبار الطلع الذي يجلب إلى الأب والابن النفحات الأولى لحمى القش، وعلى المرج عند أقدامهم صفوف من الضوء والظلّ تهتز معًا تحت تأثير النسيم الخفيف.

في هذه الأجواء، كان إدوارد يستمع إلى والده، ويحاول استحضار ذلك اليوم الشتوي المرير في ديسمبر من عام 1944، منصة سكة الحديد المكتظة في وايكومب، ووالدته الملتفعة بمعطفها السميك، تحمل حقيبة تسوق ضئيلة، تحتوي هدايا عيد الميلاد التي يمكن الحصول عليها في زمن الحرب، كانت تخطو متقدمة نحو القطار من محطة ميرلبون والذي سيقلّها نحو بلدة برنسز ريزبورو ومن ثم إلى بلدة واتلنغتون حيث سيلتقيها ليونيل.

في المنزل كانت ابنة الجيران المراهقة تعتني بإدوارد.

هنالك صنف محدد من المسافرين الواثقين الذين يحبون

فتح باب العربة تمامًا قبل توقف القطار بهدف القفز نحو منصة المحطة ببضع وثبات من الجري، ربما كانت مغادرة القطار قبل نهاية رحلته تشعره باستقلاليته – هو ليس مجرد كتلة خاملة من الحمولة، ربما تساعده هذه الحركة على إنعاش ذاكرة شبابه، أو ربما هو ببساطة على عجلة من أمره لدرجة تصنع فيها كل ثانية فارقًا كبيرًا، فرمل القطار، ربما بشكل أقوى من المعتاد، وأفلت الباب من قبضة هذا المسافر.

ضربت الحافة المعدنية الثقيلة جبهة مارجوري مايهيو بقوة كافية لشج جمجمتها، وتفكيك شخصيتها، ذكائها وذاكرتها في لحظة واحدة، استمرت غيبوبتها لأقلّ من أسبوع واحد.

وصف شهود العيان ذلك المسافر بأنه سيد من المدينة في الستينات من عمره، ذو شكل محترم، يعتمر قبعة باولر ويحمل مظلة وصحيفة ملفوفتين، فرّ مسرعًا من المشهد – امرأة شابة حامل بتوأم، ممددة على الأرض بين بضعة دمى متناثرة – واختفى إلى الأبد في شوارع وايكومب حاملًا كامل شعوره بالذنب، أو هكذا قال ليونيل إنه يرجو.

تلك اللحظة الغريبة في الحديقة – نقطة تحول في حياة إدوارد – عالقة في ذهنه بذاكرة معينة حول والده، ممسكًا بغليونه في يده، والذي لم يشعله حتى أنهى رواية القصة.

أبقى على قبضته مضمومة، بينما تقوّست سبابته حول جفنة الغليون وساقها تبتعد بما يقارب القدم عن زاوية فمه.

بما أنه الأحد، لم يكن وجهه حليقًا – لم يمتلك ليونيل أيّ معتقدات دينية، على الرغم من مروره بتدرجاتها في المدرسة، أحبَّ

الحفاظ على هذا الصباح الواحد في الأسبوع له وحده عبر عدم الحلاقة، والذي كان فعلًا متطرفًا لرجل في مكانته، لقد عزل نفسه عامدًا عن أيّ شكل من أشكال الارتباطات الاجتماعية.

ارتدى قميصًا أبيض مجعدا بلا ياقة، لم يقم بتمليسه بيده، حتى كانت طريقة تصرفه حذرة وجافة بعض الشيء – لا بد أنه قد تدرب على هذه المحادثة في ذهنه، بينما كان يتحدث، ابتعدت نظراته في بعض الأوقات عن وجه ابنه نحو المنزل، كما لو أنه يستحثّ حالة مارجوري بدقّة أكبر أو كما لو كان يراقب الفتاتين. في النهاية، وضع يده على كتف إدوارد، كانت بادرة غير معتادة، ومشى معه حتى الياردات الأخيرة من الحديقة حيث كان السور الخشبي المتداعي يتلاشى تحت وطأة النباتات المتنامية الآخذة في التقدم.

كان يقع خلف السور حقل بمساحة خمس آكرات، خالٍ من الأغنام، تستعمره أزهار الحوذان في صفين واسعين منفصلين، تمامًا كما لو كانا طريقين.

وقفا جنبًا إلى جنب بينما أشعل ليونيل تبغ غليونه.

أخيرًا، تابع إدوارد بالكيفية التي تحملها سنوات عمره، عملية الانتقال الصامت من الصدمة إلى الإدراك، لطالما عرف طبعًا، لكنه أُبقي في حالة من البراءة بسبب تغييب مصطلح يصف حالتها، لم يطرأ له حتى أن لديها حالة، وفي الوقت نفسه تقبّل طوال حياته أنها كانت مختلفة.

حُلت المفارقة الآن بتسمية بسيطة، بقوة الكلمات التي تجعل اللامرئي واضحًا، تلف دماغي، فكك هذا المصطلح تلك الحميمية، وقاسَ والدته ببرودة باستعمال معيار عام يستطيع أيٌّ كان فهمه،

بدأ فراغ مفاجئ بالتشكل، ليس فقط بين إدوارد وأمه، لكن أيضًا بين نفسه وظرفه الحالي، وشعر بوجوده، نواته المدفونة التي لم يُلق لها بالٌ من قبل، تحولت بغتة إلى وجود قوي، نقطة مشعّة لم يرد لأحد أن يعرف بها.

كانت تعاني من التلف الدماغي، وهو لم يكن كذلك، ولا عائلته، وفي أحد الأيام سوف يغادر، ثم يعود مجرد ضيف، بدأ يتخيل أنه ضيف الآن، يسلّي والده بعد أن غاب طويلًا وراء البحار، يحدق معه عبر المرج إلى الطريقين العريضين من الحوذان، واللذين يفترقان تمامًا قبل أن تنحدر الأرض في انحراف لطيف نحو الغابات.

كان يختبر شعورًا وحيدًا جعله يشعر بالذنب، لكن جرأته أثارته في الوقت نفسه.

بدا ليونيل متفهمًا لانجراف ابنه في الصمت، أخبر إدوارد أنه كان رائعًا في معاملة والدته، لطيفًا ومساعدًا دائمًا، وأنَّ هذه المحادثة لا تغير من شيء، سببها ببساطة إنه أصبح كبيرًا كفاية لمعرفة الحقائق، في هذه اللحظة أتت التوأم تركضان عبر الحديقة، باحثتين عن أخيهما، وكان لدى ليونيل لحظة واحدة كرر فيها، "ما أخبرتك إياه لا يغير شيئًا على الإطلاق"، قبل أن تصل الفتاتان إليهما بصخبهما ثم تجرا إدوارد نحو المنزل ليخبرهما رأيه في شيء قد صنعتاه.

لكن الكثير كان يتغير بالنسبة له في ذلك الوقت، كان يدرس في مدرسة هينلي للقواعد، وأخذ يسمع من عدد من أساتذته أنه قد يكون "مناسبًا للدراسة في الجامعة"، كان صديقه سايمون في نورثيند وجميع الصبيان القرويين الذين لعب معهم يدرسون في المدرسة المتوسطة الحديثة التي كانوا سيغادرونها قريبًا لتعلم حرفة

ما أو العمل في إحدى المزارع قبل أن يتمّ استدعاؤهم لأداء الخدمة العسكرية، تمنّى إدوارد أن يكون مستقبله مختلفًا.

وبدأ يشعر بنوع من التضييق عليه حين يكون مع رفاقه، من جانبهم كما من جانبه، مع تكوّم الواجبات المدرسية – على الرغم من كل تساهل ليونيل فقد كان مستبدًا فيما يتعلق بهذا الموضوع – لم يعد إدوارد يجول الغابات بعد المدرسة مع بقية الصبية لعمل المخيمات أو وضع الأفخاخ واستفزاز حرّاس الصيد في الأملاك الواقعة في وورمزلي أو ستونور، تمتلك بلدة صغيرة مثل هينلي ذرائعها المتمدنة، ولذلك فقد بدأ يتعلم إخفاء معرفته لأسماء الفراشات والطيور والأزهار البرية التي تنمو على أراضي آل فاين في الوادي الحميم أسفل المنزل الريفي – زهرة الجرس، الهندباء، زهرة الجرب، والأنواع العشرة من السحلب والأوكد وزهرة ندف الثلج الصيفية النادرة.

في المدرسة كانت معلومات مثل هذه تجعل منه معروفًا بالفتى الريفي.

لم تغير معرفته عن حادثة والدته شيئًا في الظاهر، لكن كل هذه النقلات الصغيرة وإعادة الاصطفاف في حياته بدت كما لو أنها متبلورة أكثر في ظلّ هذه المعلومات الجديدة.

كان يقظًا ولطيفًا معها، استمرّ في المساعدة على الحفاظ على خيال أنها تدير المنزل وكل ما تقوله هو الحقيقة، لكنه الآن كان يؤدي دوره بشكل واعٍ، وساعد هذا التمثيل على تقوية نواته الصغيرة الصلبة المكتشفة حديثًا لذاته.

في السادسة عشرة أصبح لديه ميل لأخذ نزهات تسكع مزاجية طويلة، وقد ساعده الوجود خارج المنزل على تصفية ذهنه،

غالبًا ما كان يسير على طول هولاند لاين، على درب مقعرة تتدلى على جوانبها طحالب متفتتة تمتد هابطة نحو تيرفيل، ثم كان يمشي نحو وادي هامبلدن حتى يصل نهر التايمز.

عابرًا إياه عند هينلي نحو منحدرات بيركشاير، لم يكن قد مضى الكثير من الوقت على اختراع مصطلح "مراهق" ولم يخطر له أن هذا الانفصال الذي يشعر به والذي كان مؤلمًا ولذيذًا في الوقت نفسه، يمكن أن يشاركه فيه أيّ شخص آخر.

وفي إحدى عطلات نهاية الأسبوع سافر متطفلًا إلى لندن من دون طلب الإذن من والده أو حتى إخباره، للمشاركة في اجتماع حاشد في ساحة ترافالغار مناهض لاجتياح قناة السويس، بينما كان هناك قرّر في لحظة نشوة أنه لن يتقدم بطلب للالتحاق بجامعة أكسفورد التي أراد والده وجميع مدرسيه ارتيادها، كانت البلدة مألوفة أكثر من اللازم، لم تكن مختلفة بما فيه الكفاية عن هينلي، قرّر القدوم إلى هذه المدينة، حيث بدا الناس أكبر حجمًا وأكثر ضجة ولم يكن من السهل التنبؤ بتصرفاتهم، وحيث تقلل الشوارع الشهيرة دون اكتراث من أهميتها الخاصة.

كانت خطة سرية تمسّك بها – لم يرد خلق معارضة مبكرة، كان ينوي كذلك تجنب تأدية الخدمة العسكرية التي سبق لوالده ليونيل أن قرر عنه فائدتها له، صقلت هذه المخططات السرية أكثر شعوره بذاته المخفية، رابطة قوية من الحساسية، التوق والغرور الحاد.

على عكس بعض الصبية في المدرسة، لم يكن يكره منزله وأسرته، بل كان يعتبر الغرف الصغيرة وقاذوراتها من المسلّمات، ولم

يتحرّج أبدًا من والدته، كان ببساطة نافد الصبر حتى تبدأ حياته، قصته الحقيقية، وبالطريقة التي كانت الأمور مرتبة بها فلن تبدأ حتى يجتاز امتحاناته.

لذلك فقد عمل جاهدًا، كتب مقالات جيدة، خاصة لأستاذه في مادة التاريخ، كان لطيفًا كفاية مع والديه وأخته، وتابع الحلم بذلك اليوم الذي سيتمكن فيه من مغادرة المنزل الريفي في تيرفل هيث بيد أنه بطريقة ما كان قد غادره فعلًا.

الفصل الثالث

حين وصلت فلورنس إلى غرفة النوم أفلتت يد إدوارد واتكأت على عمود خشب البلوط الذي يدعم السرير، انحنت نحو اليمين ثم نحو اليسار مسقطة أحد كتفيها بجمال في كل انحناءة لتخلع حذاءها.

لقد كان هذا حذاء الخروج الذي ابتاعته مع والدتها بعد ظهيرة ممطرة ومضطربة في دبنهامز – إذ إن دخول المتاجر كان غير اعتيادي ويبعث على التوتر بالنسبة لفيوليت، كان الحذاء مصنوعًا من الجلد الناعم بلون أزرق باهت، ويمتلك كعبين منخفضين وعقدة صغيرة في مقدمته معقودة بشكل فني جميل، ولها لون أزرق أدكن من باقي الحذاء.

لم تكن العروس متعجلة في حركاتها – وهذا الأمر كان أيضًا أحد تكتيكات التأجيل التي اعتمدتها، لقد كانت مدركة تمامًا لتحديقات زوجها المسحور، لكنها لم تشعر بالانزعاج أو الضغط في هذه اللحظة.

عند دخولها غرفة النوم انغمست في حالة من عدم الراحة، تشبه الأحلام، غمرتها كما لو كانت واحدة من بدلات الغطس قديمة الطراز في مياه عميقة، وفي هذه الحالة شعرت بأن الأفكار لم تكن أفكارها هي – كأنها أصبحت تُضخ إليها عبر أنبوب البدلة بدلًا من الأوكسجين.

في حالتها هذه دار في بالها مقطع موسيقي بسيط يكرر نفسه

بالطريقة الضبابية العصية على الإدراك والتي تميز عادة ما يدور في الذاكرة الصوتية، تبعها المقطع إلى جانب السرير حيث تكرر مجددًا بينما أمسكت كل فردة حذاء بيد، يتألف المقطع المألوف – والذي قد يعتبره بعض الأشخاص مقطعًا شهيرًا- من أربع نوتات متصاعدة بدت كما لو أنها تطرح سؤالًا مؤقتًا، ولأن الآلة الموسيقية كانت التشيللو عوضًا عن كمانها فإنها لم تكن صاحبة السؤال بل كان مستجوبها مراقبًا منفصلًا، شكاكًا إلى حد ما، لكنه مصرّ في الوقت نفسه لأنه بعد فترة من الصمت القصير وردّ مطول من الآلات الموسيقية الأخرى، عاد ليطرح السؤال ثانية بطريقة مختلفة، على وتر مختلف، مجددًا ومجددًا، متلقيًا في كل مرة إجابة مملوءة بالشكّ.

لم تمتلك فلورنس مجموعة من الكلمات تلائم هذه النوتات، لم يبدُ أصلًا أن هناك شيئًا يقال، كان السؤال من دون مضمون، نقيًا كإشارة استفهام.

كانت افتتاحية خماسية موزارت سبب الخلاف بين فلورنس وأصدقائها، لأن عزفها تطلّب استقطاب عازف كمان آخر، وقد فضل الباقون تجنب التعقيدات، لكن فلورنس أصرّت، أرادت إحضار عازف لهذه المقطوعة، وعندما دعت إحدى صديقاتها من الكواليس للمشاركة في التمرين وقاموا بقراءة النوتات بالتفصيل، أُعجب عازف التشيلّو بالأمر على الرغم من غروره، وسريعًا ما وقع الجميع تحت تأثير هذا السحر، كيف لا والعبارة الافتتاحية كانت تطرح سؤالًا صعبًا حول تماسك رباعية إنيسمور المسماة تيمنًا بعنوان الفندق الذي قطنت فيه الفتيات – وقد حُسم الأمر بسبب إصرار فلورنس على مواجهة المعارضة، واحد ضد ثلاثة، وإيمانها الذي لا يتزعزع

بذوقها العالي.

بينما كانت تعبر غرفة النوم وظهرها لا يزال نحو إدوارد في لعبتها لكسب المزيد من الوقت، واضعةً حذاءها على الأرض قرب خزانة الملابس، ذكّرتها النوتات الأربع بالأوجه الأخرى لشخصيتها، فلورنس التي قادت رباعيتها، التي فرضت إرادتها دون إثارة سخط الآخرين، لم تكن لتقبل الانصياع للتوقعات التقليدية، لم تكن تلك النعجة التي تساق تحت النصل دون تذمر، أو يسهل اختراقها.

بل كانت ستطالب لنفسها بما ترغب، وترفض ما لا ترغبه من هذا الزواج وستخبر إدوارد وتتوقع التوصل إلى نوع من التسوية معه.

فلا يجوز بالتأكيد أن تكون رغبات أحدهما على حساب الآخر، تتلخص الفكرة في أن يحب أحدهما الآخر ويدعه حرًا، نعم، عليها أن تعبّر عن رأيها كما كانت خلال التمارين، وهذا ما سوف تفعله الآن.

حتى أنها كانت تمتلك فكرة عن الطريقة التي ستبدأ بها عرضها هذا، افترت شفتاها وأخذت نفسًا عميقًا، ثم التفتت عند سماعها لصرير لوح خشبي في الأرضية، ورأته يقترب منها مبتسمًا، وجهه الجميل مائل إلى اللون الوردي وفي الحال - وكأنها لم تكن ملكها بالفعل – اختفت الفكرة التي تبعث على التحرر.

كان ثوبها المعدّ للخروج مصنوعًا من القطن الصيفي الخفيف بلون أزهار القنطريون الزرقاء، ملائمًا تمامًا لحذائها، وقد عثرت عليه بعد ساعات طويلة من التجوال في الشوارع بين شارع ريجنت وقوس ماربل، من دون والدتها لحسن الحظ.

حين جذب إدوارد فلورنس لم يكن يقصد أن يقبّلها، بل أن يضغط جسدها على جسده ثم يضع يدًا على مؤخر عنقها ويتحسس زمام فستانها بينما بسط يده الأخرى بثبات على التقوس في أسفل ظهرها وراح يهمس في أذنها بارتفاع وقرب جعلاها تسمع صخب هواءٍ رطبٍ ودافئ فحسب.

لكنّ حلّ الزمام بيد واحدة كان أمرًا صعبًا، على الأقل في أول إنش أو اثنين منه، فلا بدَّ من الإمساك بأعلى الفستان بشكل مستقيم بإحدى اليدين ثم استعمال الأخرى لزلق الزمام وإلا فإن القماش الرقيق سوف يتجمع ويتمزق، كان بمقدورها مدّ يدها فوق كتفها لتساعده لكنّ ذراعيها كانتا محجوزتين، كما أن إرشاده إلى ما يجب فعله لم يبد صائبًا، علاوة على ذلك فهي لم ترغب بجرح مشاعره.

استمرّ بمداعبة الزمام بجهد أكبر، مطلقًا زفرات حادة، محاولًا سحبه بالقوة لكن الزمام كان قد بلغ مرحلة لم يعد بالإمكان فيها تحريكه للأعلى أو الأسفل، لقد كانت حاليًا محتجزة داخل فستانها.

"يا إلهي، فلو، هلاّ بقيت ثابتة"

تجمدت مطيعة طلبه، مذعورة من نبرة الانزعاج في صوته، وشعرت بشكل تلقائي أنها المذنبة، ففي نهاية الأمر كان هذان فستانها وزمامها هي.

وخطر لها أنها ربما تساعده إن استطاعت التفلّت من بين يديه وإدارة ظهرها، ثم الاقتراب من النافذة للحصول على إضاءة أفضل، لكنّ تصرفًا كهذا قد يبدو غير عاطفي، وقد تزيد المقاطعة

الطين بلة.

في المنزل كانت تعتمد على شقيقتها البارعة باستخدام أصابعها على الرغم من عزفها اللانهائي على البيانو، لم تمتلك والدتها الصبر اللازم للتعامل مع الأشياء الصغيرة.

إدوارد المسكين – شعرت بارتعاش كتفيه على طول ذراعيه، بينما أصبح يحاول بيديه الاثنتين، وتخيلت أصابعه الثخينة وهي تعبث بين طبقات القماش المتجمع ومعدن الزمام الملتصق بها، أحست بالأسف عليه والقليل من الخوف منه كذلك.

كان من الممكن لأيّ اقتراح خجول تقدمه أن يزيد من غضبه أكثر، لذلك انتظرت بصبر حتى حرّر نفسه منها وتراجع إلى الخلف متأوهًا، في الواقع كان يشعر بالندم، "أنا آسف حقًا على هذه الفوضى، إني أخرق للغاية".

"عزيزي، كثيرًا ما يحدث الأمر ذاته معي"

جلسا على طرف السرير وابتسم ليعلمها أنه لم يصدقها، لكنه يقدّر تعليقها هذا، هنا في غرفة النوم كانت النوافذ مشرعة على مشهد مرج الفندق نفسه وأرض الغابة والبحر، وجلبت نقلة مفاجئة في الريح أو المدّ أو ربما إحدى السفن العابرة صوت عددٍ من الموجات التي أخذت تتحطم بتعاقب، لطمات حادة على الشاطئ، وبالسرعة نفسها عادت الأمواج كما كانت، تدندن وتمشط الحصباء بلطف.

لفّت ذراعها على كتفه: "أتود أن تعرف سرًا؟"

"أجل"

جذبت شحمة أذنه بين إبهامها والسبّابة، وأمالت رأسه برفق نحوها ثم همست: "في الواقع، أنا خائفة قليلًا".

لم يكن هذا الكلام دقيقًا حقًا، لكنه نَمّ عن مراعاة، فهي لا تستطيع وصف حشد مشاعرها: إحساس جسدي جافّ بالانكماش القوي، واشمئزاز عام حيال ما قد يَطلب منها أن تفعله، وخجلٌ من فكرة تخييب أمله، ومن كشف أنها مخادعة.

كرهت نفسها، وعندما همهمت هذه الكلمات من فمها شعرت بأنها كلمات شخصية شريرة على خشبة مسرح، لكن الحديث عن الخوف كان أفضل من الاعتراف بالاشمئزاز أو العار، كان عليها بذل ما تستطيع لتخفيض توقعاته.

حدّق بها من دون أن يبدو على ملامحه أنه قد سمعها، حتى وهي في هذه الحالة الصعبة تعجبت من جمال عينيه البنيتين اللطيفتين، عينان تفيضان ذكاءً لطيفًا وتسامحًا، ربما إنْ حدّقت بهما وتعامت عن كل شيء آخر ستكون قادرة على فعل أيّ أمرٍ يطلبه منها، ربما ستثق به ثقة عمياء، لكن هذه الفكرة مجرد خيال.

"أعتقد أنني خائف أيضًا.." قال في النهاية، بينما كانت يده على ركبتها، ثم تابع تمريرها من تحت حاشية فستانها حتى استقرت على باطن فخذها وإبهامه يلامس سروالها الداخلي.

كانت رجلاها عاريتين وملساوين وسمراوين بسبب حمامات الشمس في الحديقة ومباريات التنس مع أصدقائها القدامى من أيام المدرسة في الملاعب الصيفية العامة، فضلًا عن نزهتين طويلتين مع إدوارد إلى المنحدرات المزهرة التي تقع أعلى قرية إوليم الجميلة حيث دُفنت حفيدة تشاوسر، تابعا التحديق في عينَي بعضهما – والذي هو إنجاز في حدّ ذاته.

وهكذا كانت مدركة تمامًا للمساته، لضغط يده الدافئة

والدبقة على جلدها والتي كان بمقدورها تخيلها ورؤيتها، بالتحديد إبهامه الطويلة المقوّسة في الكآبة الموجودة تحت فستانها، يده تقبع بصبر كمحرّك محبوس خلف جدران المدينة، ظفره المقلم بعناية يمشط تجعدات الحرير الكريمية بنقلات قصيرة على طول خط الحواف المخرمة، ويلمس – كانت متأكدة من ذلك وشعرت به بوضوح – شعرة جعداء متفلتة.

ضغطت على نفسها قدر المستطاع لتمنع عضلة فخذها من التوتر، لكن العضلة كانت تتصرف من تلقاء نفسها، حتمية وقوية كما العطسة.

لم تكن هذه العضلة الخائنة مؤلمة وهي تنقبض ويتحول انقباضها إلى تشنج خفيف، لكنها شعرت بأنها تخذلها، مفشية بالدليل الأول عن عمق مشكلتها، لا بد أنه قد شعر بالعاصفة الصغيرة تحت يده لأن عينيه اتسعتا لدقيقة وظهر من ميلان حاجبيه وافترار ثغره الصامت أنه كان متأثرًا، مستغربًا حتى، لأنه اعتقد اضطرابها توقًا.

"فلو...؟" قال اسمها بحذر وصوته يتموج، كأنه يريد تهدئتها أو ثنيها عن فعلٍ متسرع، بينما كان عليه التعامل مع عاصفته الصغيرة الخاصة به، أصبح تنفسه قصيرًا وغير منتظم، بينما أخذ يباعد لسانه عن نطعه مصدرًا صوتًا خافتًا وبارزًا.

من المخزي في بعض الأوقات كيف يرفض الجسم أو يعجز عن الكذب حيال ما يشعر به، من الذي يستطيع، باسم اللباقة، أن يبطئ ضربات قلبه أو يكتم تضرجه؟ أخذت عضلتها الجامحة بالتقافز والرفرفة كما لو كانت عثة محبوسة تحت جلدها، لقد عانت في السابق من مشكلة مشابهة في جفنها.

لكن لربما كان الاضطراب ينحسر، لم تكن متأكدة، ساعدها هذا الوضع على تحديد الأساسيات، وأخذت تتلوها على نفسها بوضوح ساذج، كانت يده في هذا المكان لأنه زوجها، تركته يبقي يده هناك لأنها زوجته، من المؤكد لو أن صديقاتها – غريتا، هيرميون، ولوسي على الأخص - في مكانها لكُنَّ عاريات بين الشراشف منذ ساعات، ولكُنَّ أتممن هذا الزواج - بصخب وسعادة – قبل الزفاف بكثير.

لقد اعتقدن بسبب حبهن لها وسخائهن أنها قد تصرفت بهذه الطريقة تمامًا، هي لم تكذب عليهن، لكنها كذلك لم تصحح اعتقادهن، شعرت عند التفكير بصديقاتها بذاك الطعم الغريب الخاص بوجودها الذاتي، كانت وحيدة.

لم تتقدم يد إدوارد – لربما أضعفه ما قد اعتقد أنه قد فعله – بل اكتفى بهزّها برقة في مكانها وهو يعجن باطن فخذها بلطف، وقد يكون هذا هو السبب الذي جعل التشنج يتلاشى، لكنها لم تعد منتبهة لما يحدث، من المؤكد أن الأمر عرضي، لأنه لم يكن ليعلم أنه بينما كانت يده تجسّ رجلها، كان طرف إبهامه يدفع الشعرة الوحيدة التي تفلّتت متجعدة من تحت سروالها الداخلي، يهزّها جيئة وذهابًا، يحرّكها من جذرها على امتداد العصب وحتى جُرَيب الشعرة، مجرد شبح إحساس يقارب بداية مجردة، بدقة لا حدود لها كما لو كان نقطة هندسية تكبر لتتحول إلى بقعة صغيرة ملساء الحواف، وتستمرّ بالتورم.

شكّت بالأمر، أنكرته، حتى عندما شعرت بنفسها تغرق وتنثني باتجاهه داخليًا، كيف يمكن لجذر شعرة واحدة أن يجذب

جسدها كله؟ ومع استمرار إيقاع مداعبة يده، بضربات منتظمة، انتشرت نقطة الشعور الواحدة لتغطي سطح جلدها، على امتداد بطنها، وبنبضات تهبط نحو عجانها، لم يكن الشعور غريبًا تمامًا عليها – شيء بين الألم والحكة، لكنه أنعم، أكثر دفئًا، وأكثر فراغًا بطريقة ما، فراغ مؤلم ولذيذ يتصاعد من جُرَيب شعرة تُداعَب بإيقاع منتظم ويمتدّ على شكل موجات متراكزة في أنحاء جسمها، والآن يتحرك أعمق نحو داخله، للمرة الأولى يصير حبها لإدوارد مرتبطًا بإحساس جسدي يمكن تعريفه ولا يمكن دحضه وكأنه دوخة، في السابق كانت تعرف وحسب ذاك الحساء من المشاعر الدافئة، بطانية شتوية سميكة من اللطف والثقة التي لطالما كانت تبدو كافية، إنجازًا في حد ذاتها، والآن أخيرًا بدأت تشعر بالرغبة، دقيقة وغريبة، لكنها بالتأكيد رغبتها هي وأكثر، كأنها معلقة أبعد وأعمق من ذاتها، محجوبة عن الأنظار، وشعرت بالراحة لأنها مثل الآخرين، حين كانت في أواخر الرابعة عشرة من عمرها، وفي يأسها لأن كل صديقاتها نمت أثداؤهن بينما كانت هي لا تزال تبدو كعملاقة في التاسعة من العمر، مرّت بلحظة تجلٍّ مشابهة أمام المرآة حين لاحظت وتلمست للمرة الأولى تورمًا مشدودًا وجديدًا حول حلمتيها، لو لم تكن والدتها مشغولة بإعداد محاضرتها في الطابق السفلي حول إسبينوزا لكانت فلورنس قد عبّرت عن ابتهاجها بالصراخ، لم يكن هنالك مجال للشك، هي ليست فئة منفصلة من الجنس البشري، منتصرةً، كانت تنتمي إلى العموم.

كانت عيناها لا تزالان معلّقتين بعينيه، بينما بدا التحدث أمرًا غير وارد على الإطلاق، حاولت التظاهر أن لا شيء يدور بينهما الآن – إنَّ يده لم تكن تحت فستانها، إبهامه لم يكن يدفع شعرة عانة

شاردة محركًا إياها إلى الأمام والخلف، لم تكن تمر باكتشاف حسّي هائل.

امتدّ خلف رأس إدوارد مشهد جزئي لماضٍ بعيد – الباب المفتوح وطاولة الطعام قرب النافذة الفرنسية والحطام المتناثر حول عشائهما الذي لم يتناولاه – لكنها لم تترك تحديقتها تنتقل نحو استيعاب المشهد بأكمله.

على الرغم من الشعور المرضي وارتياحها، كانت مخاوفها لا تزال موجودة، جدارًا عاليًا، لا يمكن تقويضه بسهولة، ولم ترغب أصلًا في تقويضه، في غمرة كل هذه الأمور الجديدة، لم تكن في حالة من التنازل الجياش، ولم تُرد أن تُساق باستعجال نحو تنازل كهذا، أرادت إطالة هذه اللحظة الفسيحة، بكامل ملابسهما، النظرة الرقيقة لعينيه البنيتين، لمساته اللطيفة، والإثارة الآخذة بالامتداد، لكنها علمت استحالة حدوث هذا الأمر، وأنه، كما قال الجميع، لا بد أن يفضي فعلٌ إلى فعلٍ آخر.

***

كان وجه إدوارد لا يزال ورديًا أكثر من الطبيعي. حدقتاه متسعتان، شفتاه متباعدتان، وتنفسه كما في السابق، ضحل، مضطرب وسريع، لقد ألقى أسبوعُ التحضير للزفاف وضبط النفس المحموم بثقل كبير على عاتق كيمياء جسمه الشاب، وهي أمامه تبدو ثمينة ومشرقة، فلم يعرف ما الذي عليه فعله، التمع الفستان الأزرق تحت الإضاءة بلون أدكن مقارنة مع باللحاف الأبيض المفروش.

حين لمس باطن فخذها للمرة الأولى وجده يميل إلى البرودة بشكل مفاجئ، الأمر الذي أثاره فورًا لسبب من الأسباب، بينما نظر في عينيها رغب بالميل نحوها في حركة فورية طائشة، كان عالقًا بين ضغط حماسته وعبء جهله، إذ إنه خلاف الأفلام، النكات القذرة والنوادر الجامحة، كان معظم ما يعرفه عن النساء مستقى من فلورنس نفسها.

يمكن للاضطراب الذي شعر به تحت يده أن يكون ببساطة إشارة أخبره الجميع عن تمييزها والتجاوب معها، نوعًا من الدلائل على نشوة الأنثى الجنسية، ربما، وقد تكون بشكل مساوٍ مجرد ردّ فعل عصبي، ما من طريقة ليعرف، شعر بالراحة حين بدأ هذا التشنج بالانحسار، عادت إلى ذاكرته إحدى المرات التي كان فيها في حقل ذرة شاسع خارج قرية أوليم حين تولى التحكم بحصّادة محاصيل بعد أن تفاخر بكفاءته أمام الفلاح، لكنه عندها لم يجرؤ على لمس أيّ من المقابض، هو ببساطة لم يمتلك المعرفة الكافية.

من جهة، كانت هي التي قادته إلى غرفة النوم، خلعت حذاءها باسترسال، ثم سمحت له بوضع يده على هذه المقربة.

من جهة أخرى فهو يعلم من خبرته الطويلة كيف يمكن لحركة طائشة واحدة أن تفسد حظوظه معها، بينما كانت يده لا تزال في مكانها، تداعب فخذها، واصلت التحديق إليه بهيئة تدعوه للاقتراب، إذ إن ملامحها الجريئة رقّت، ضاقت عيناها ثم اتسعتا لتحدقا في عينيه، والآن أمالت رأسها إلى الخلف – ما جعله يعتقد أن حذره أمر سخيف.

هذا التردد جنوني، لقد أصبحا متزوجين بحقّ السماء، وهي

كانت تشجعه، تحثّه، متعطشة لأن يستلم زمام الأمور، مع ذلك فهو لم يستطع تجاهل ذكرياته عن المرات التي أخطأ بها في قراءة الإشارات، وعلى الأخص تلك المرة في السينما عند عرض فيلم "طعم العسل"، حين قفزت نحو الممر مثل غزال فزع، استغرق هذا الخطأ الواحد أسابيع لإصلاحه – كان كارثة لم يجرؤ على تكرارها، كما أنه يشكّ في مقدرة حفل زفاف مدته 40 دقيقة على تحقيق تغيير بهذا العمق.

كان واعيًا لتنفسه، تزعجه حالة من التثاؤب العصبي التي يكبتها بالعبوس وتلهّب المنخرين – كان الأمر ليزداد سوءًا لو اعتقدت أنه يشعر بالملل، تألّم جدًا لأن ليلة زفافهما لم تكن بسيطة على الرغم من حبهما الواضح لبعضهما، كان يعتبر حالته هذه من الحماسة والجهل والحيرة خطيرة لأنه لم يكن يثق بنفسه، إذ إنه كان قادرًا على التصرف بغباء، قادرًا على الانفجار حتى، وكان معروفًا بين رفاقه في الجامعة أنه واحد من الأشخاص الصموتين القابلين للانفجار العرضي العنيف.

حسب رواية والده فإن طفولته المبكرة انطوت على نوبات غضب مذهلة، وخلال سنواته في المدرسة ثم الجامعة كان ينجذب بين الفينة والأخرى نحو الحرية الجامحة للعراك بالأيدي، بدءًا من الحفر الموجودة في باحة المدرسة التي يتجمع حولها جمهور من الأطفال المشجعين ليصنعوا حلقة من المتفرجين، إلى مواعيد فردية في المساحات الخالية من الأشجار في الغابات الواقعة على حافة القرية، إلى الشجارات الوقحة خارج حانات لندن المركزية، وجد إدوارد في العراك حالة مثيرة من اللامتوقع، واكتشف شخصية عفوية حازمة تملصت منه في باقي أوجه وجوده الهادئ، لم يسعَ يومًا للدخول

في المشاجرات، لكنها حين تحدث، فإن بعض تفاصيلها – الاستهزاء، الأصدقاء الذين يحاولون ردعه، المواجهة، الغضب المطلق لخصمه – كانت كلها لا تُقاوم، وكان يهبط عليه نوع من الرؤية النفقية والصمم، ثم يعود فجأة إلى ما كان عليه ليلج نحو متعة منسية، كما لو كان يظهر في حلم متكرر، وكما تبدو آثار السُكر على الطلاب لاحقًا، كان الألم يأتيه بعد العراك، لم يكن ملاكمًا مذهلًا، لكنه امتلك موهبة التهور الجسدي وكان محقًا في رفع عتبة رهاناته.

كما أنه كان قويًا، لم يسبق لفلورنس رؤيته في هذه الحالة من الجنون، ولم تكن لديه نية في التحدث إليها حول هذا الأمر، مرّت ثمانية عشر شهرًا على آخر عراك له، منذ يناير 1961، في الفصل الثاني من سنته الأخيرة وكان في تلك المرة محقًا في أسباب العراك على غير العادة، شيء من العدالة كان إلى جانبه، كان يسير على طول شارع أولد كومبتون نحو الحانة الفرنسية في شارع دِين برفقة طالب آخر في السنة الثالثة، هارولد ماذر، كان المساء في بدايته وقد قَدِما مباشرة من المكتبة في شارع ماليت للقاء بعض الأصدقاء. في مدرسة إدوارد للقواعد كان ماذر يشكّل ضحية مثالية – كان قصيرًا، بالكاد يبلغ طوله خمسة أقدام ونصف القدم، يرتدي نظارات سميكة فوق ملامح مسحوقة بشكل كوميدي، حادّ الذكاء وكثير الثرثرة، لكنّ وضعه تحسّن في الجامعة على أيّ حال، أصبح شخصية مرموقة، يمتلك مجموعة هامّة من أسطوانات موسيقا الجاز، محرر لصحيفة أدبية، صاحب قصة قصيرة حازت على الموافقة من محرّري مجلة إنكاونتر لكنها لم تنشر بعد، لقد كان مضحكًا للغاية في مناظرات الاتحاد الرسمية ومقلدًا بارعًا للشخصيات – قام بتقليد

ماكميلان، جيتسكل، كينيدي، خروتشوف بلغة بروسية مزيفة، فضلا عن العديد من القادة الأفارقة والكوميديين مثل آل ريد وتوني هانكوك، كان قادرًا على إعادة إنتاج جميع الأصوات والاسكتشات من مسرحية "وراء الهامش"، وأجمع الجميع على كونه أفضل طالب في مجموعة التاريخ، اعتبر إدوارد هذه الصداقة تقدمًا في حياته، دليلًا على نضج جديد، إنه الآن يثمّن صداقة مع رجل كان يبذل جهدًا كبيرًا في الماضي لتحاشيه.

في ذلك الوقت، في أمسية شتوية ضمن الأسبوع، كانت حارة سوهو قد بدأت تضجّ بالحياة للتوّ، الحانات ممتلئة، النوادي الليلية لم تفتح أبوابها بعد، والأرصفة غير مزدحمة، كان من السهل رؤية الاثنين وهما يقتربان منهما على طول شارع أولد كومبتون، من هواة موسيقا الروك – شاب ضخم في منتصف العشرينات، ذو سالفين طويلين، سترة جلدية مرصعة بقطع معدنية، سروال جينز ضيق وجزمة، وحبيبته الممتلئة، متمسّكة بذراعه، لباسها يطابق لباسه، أثناء مرورهما ومن دون تغيير إيقاع خطواتهما لوّح الشاب بذراعه ليسدّد بيد مسطحة ضربة قوية على مؤخر رأس ماذر جاعلًا إياه يترنح، مرسلًا نظارته التي على نمط نظارات بادي هولي لتتقافز عبر الشارع.

كان هذا التصرف ازدراء معتادًا يتلقاه ماذر بسبب طوله ومظهره الدال على شخص مواظب على الدراسة، أو ربما لأنه بدا يهوديًّا، وهو فعلًا كذلك، كان الهدف من تصرّف الشاب على الأرجح إثارة إعجاب الفتاة أو تسليتها، لم يتوقف إدوارد للتفكير بالأمر، وبينما خطا خطوات واسعة خلف الاثنين سمع هارولد يصرخ

بشيء مثل: "لا" أو "لا تفعل" لكنه كان قد بلغ مرحلة الصمم عن مثل هذه الاستجداءات، عاد إلى ذلك الحلم، كان من الصعب عليه وصف حالته: تعاظم غضبه ليصبح نوعًا من النشوة، أمسك كتف الشاب بيده اليمنى وأداره ثم قبض على حنجرته باليسرى ودفعه نحو الجدار، ارتطم رأس الرجل بشكل يبعث على الرضى بأنبوب تصريف من الحديد الصلب، ثم ضربه على وجهه بينما كان لا يزال يقبض على حنجرته، ضربة واحدة لكنها قوية للغاية، بقبضة مغلقة، ثم عاد ليساعد ماذر في إيجاد نظارته، كانت إحدى العدستين محطمة، سارا بعيدًا تاركين الشاب جالسًا على الرصيف وقد غطّى وجهه بكلتا يديه وحبيبته منشغلة به.

استغرق إدوارد بعض الوقت في تلك الأمسية ليدرك أن هارولد ماذر لم يكن يشعر بالامتنان، واستغرقه صمت ماذر، أو صمته معه بالتحديد ليوم أو اثنين ليستوعب أن صديقه لم يعارض وحسب، بل أسوأ، كان محرجًا من تصرفه، في الحانة لم يخبر أيّ منهما القصة لأصدقائهما، ولاحقًا لم يتحدث ماذر عن الموضوع مع إدوارد، ربما كان التوبيخ سيفضي إلى نوع من الراحة، وهكذا انسحب ماذر من حياة إدوارد من دون أيّ صدامات، على الرغم من أنهما كانا يلتقيان في صحبة الآخرين، ولم يكن مجافيًا تجاه إدوارد بشكل واضح إلا أن الصداقة لم تعد كما كانت.

عاش إدوارد في عذاب لأنه اعتبر نفور ماذر منه عائدًا إلى تصرفه، لكنه لم يمتلك الشجاعة الكافية لطرح الموضوع فضلا عن أن ماذر حرص على ألا يكون وحيدًا مع إدوارد في أيّ وقت، في البداية اعتقد إدوارد أن الخطأ تمثل في تدميره لاعتزاز ماذر عبر شهادته

لواقعة تعرّض فيها للإذلال، الأمر الذي زاده سوءًا عندما أضاف إليه التصرف كما لو كان بطله، عرضه لقوته بينما كان ماذر ضعيفًا هشًا، لاحقًا أدرك إدوارد أن ما فعله كان ببساطة غير لطيف، وتعاظم خجله، لا يتوافق قتال الشوارع مع الشِعر والسخرية، مع موسيقا الجاز أو التاريخ، كان مذنبًا بافتقاد الذوق لفترة مؤقتة، لم يكن الشخص الذي اعتقده.

وغدا الأمر الذي اعتبره ميزة وفضيلة صِرفة مجرد ابتذال، لقد كان فتى ريفيًا، أحمق قرويًا يعتقد أن الضربة القوية بالقبضة العارية يمكن أن تثير إعجاب صديق، يا لها من إعادة تقييم مخزية، كان يمرّ بواحدة من المحاولات التقليدية للرشد المبكر، اكتشاف القيم الجديدة التي يفضّل أن يُحكم عليه باستعمالها، منذ ذلك الوقت، بقي إدوارد بعيدًا عن المشاجرات، لكن الآن، في ليلة زفافه، لم يكن واثقًا بنفسه.

لم يكن واثقًا من أنّ تصاعد الرؤية النفقية والصمم الاختياري الانتقائي لن تعود من جديد مغلفة إياه كالضباب الشتوي على مروج تيرفيل، فتحجب معها ذاته الحديثة المصقولة.

كان يجلس قرب فلورنس، يده تحت فستانها، يداعب فخذها لأكثر من دقيقة ونصف حتى الآن، كان اشتهاؤه المؤلم لها يتصاعد بشكل يتخطى الاحتمال، وكان خائفًا من تضجره المتوحش، وكلماته أو أفعاله الغاضبة التي يمكن أن تنتج عن هذا الاشتهاء مدمرة معها الأمسية، كان يحبها لكنه أراد أن يهزّها حتى تستيقظ، أو أن يصفعها لتخرج من رصانتها المدعومة بوقفتها الموسيقية، من صفات انتمائها لشمال أكسفورد، يجعلها ترى بساطة الأمر، ههنا توجد حرية حسّية

غير محدودة، في متناول أيديهما، حتى إنها مباركة من قبل الكاهن – أعبدك بجسدي – حرية قذرة ممتعة يتعريان فيها وقد تجلّى هذا كله في مخيلته مثل كاتدرائية بهيجة شاسعة، قد تكون مخرَّبة، بلا سقف، مفتوحة بنقوشها على السماء حيث سيطفوان إلى الأعلى بلا وزن في عناق قوي يملكان فيه بعضهما، يُغرق واحدهما الآخر في موجات من النشوة المجنونة اللاهثة، أمر في غاية البساطة، لماذا لم يكونا هناك الآن، عوضًا عن الجلوس هنا محجوزين داخل كل الأشياء التي لم يعرفا طريقة للبوح بها أو لم يجرؤا على قولها؟ وما الذي يعيقهما؟ شخصيّتاهما وماضيهما، جهلهما وخوفهما، خجلهما، حساسيتهما الشديدة، انعدام شعورهما بالأحقية أو الخبرة أو التصرف بسلاسة، بقايا الموانع الدينية، كونهما إنجليزيين والطبقة التي ينتميان إليها، التاريخ في حدّ ذاته، ليس بالأمر الجلل، رفع يده وشدّها إليه ثم قبّل شفتيها، مستعملًا كل ضبط النفس القادر عليه، مانعًا لسانه من التحرك، أراح ظهرها على السرير كي تتوسد ذراعه، استلقى على جانبه، جاسًّا مرفق الذراع نفسها، ناظرًا إليها من أعلى، صرّ السرير بأنين حين تحركا مذكرًا بأزواج آخرين كانوا هنا لقضاء شهر عسلهم، جميعهم بالتأكيد كانوا أكثر براعة منهما، كبت نزوة مفاجئة للضحك على هذه الفكرة، أزواج يقفون في صف طويل رزين يمتد إلى الممر، في الطابق السفلي حتى مكتب الاستقبال، عائدين عبر الزمن، من المهم ألا يفكر بهم، إذ إن الكوميديا سمّ إباحي، وعليه أن يكبح كذلك فكرة كونها مذعورة منه، إذ إنه لو آمن بهذه الفكرة لعجز عن فعل أيّ شيء، وهي مطواعة بين ذراعيه، عيناها لا تزالان مثبتتين في عينيه، وجهها مترافٍ وصعب التفسير، تنفسها منتظم وعميق كما لو كانت

نائمة، همس باسمها وأخبرها مرارًا أنه يحبها، رمشت وباعدت شفتيها ربما للتجاوب معه أو مبادلته الكلمات.

بدأ بخلع سروالها التحتي بيده الحرة، توتّرت لكنها لم تقاوم ورفعت، أو حاولت رفع ردفيها عن السرير، مجددًا تعالى الصوت التعيس لنوابض الفراش أو إطار السرير كثغاء حَمَل في الربيع، لم يكن من الممكن له حتى بعد مطّ ذراعه الحرة إلى أقصى الحدود أن يمرر سروالها التحتي عبر ركبتيها وكاحليها من دون سحب ذراعه الأخرى من تحت رأسها، ساعدته بثني ركبتيها، إشارة إيجابية، لم يستطع مواجهة جولة أخرى من محاولات فكّ زمام فستانها، لذلك، فعلى حمالة صدرها – من الحرير الأزرق الباهت، كما لمحها، بحوافٍ دقيقة من الدانتيل – أن تبقى مكانها أيضًا وهذا أبعد ما يكون عن العناق العاري المجرد من الوزن، لكنها كانت جميلة كما هي، مستلقية على ذراعه، فستانها متجمع حول فخذيها، حبال من شعرها المضفور منتثرة على أرجاء اللحاف، ملكة شمسية، تبادلا القبل مجددًا، شعر بالغثيان من اجتماع الرغبة والتردد داخله، ليخلع ثيابه سيتعيّن عليه مقاطعة هذه الوضعية الواعدة لجسديهما ويخاطر بكسر سحر اللحظة، تغيير بسيط، تركيبة من العوامل الضئيلة، دبابير صغيرة من الشك وقد تغيّر رأيها، لكنه آمن بشدة أن ممارسة الحب – خاصة في المرة الأولى – عبر زمام سرواله كان أمرًا مجردًا من العاطفة ومقرفًا، وغير مهذب.

بعد عدة دقائق انزلق من جانبها وخلع ملابسه على عجل قرب النافذة، تاركًا منطقة ثمينة حول السرير خالية من كل هذا الابتذال، داس على مؤخر حذائه ليخلعه من قدمه وانتزع جواربه

بحركة خاطفة من إبهاميه، لاحظ أن نظراتها لم تكن مركّزة عليه، بل مستقيمة تحدّق في المظلة المتدلية فوقها، في ثوانٍ أصبح عاريًا من كلّ ثيابه عدا قميصه، ربطة عنقه وساعة معصمه.

بطريقة ما أخفى قميصه وعزّز في الوقت نفسه انتصاب عضوه، كأنه نُصب عام مغطى بالقماش، يتماشى بأدب مع المعيار الذي سنّه ثوبها الذي لا يزال على جسدها، بالتأكيد كانت ربطة العنق سخيفة وقد جذبها بيد واحدة، بينما حلّ الزرّ الأعلى لقميصه باليد الأخرى وهو يعاود الاقتراب من فلورنس، كانت حركته متقنة وواثقة، وللحظة عادت إليه فكرته التي كان يمتلكها منذ زمن عن نفسه، عن كونه حجرًا صلبًا بشخصية لائقة وقادرة في جوهرها، لكن هذه الفكرة اختفت، وعاد شبح هارولد ماذر ليزعجه.

***

اختارت فلورنس ألا تجلس، وألا تغير وضعيتها، بقيت مستلقية على ظهرها، واستمرّت بالتحديق في القماش المَثنيّ بلون البسكويت والمثبّت على عوارض السرير بشكل كان يُقصد منه، كما تعتقد، أن يستحضر أجواء القلاع الإنجليزية القديمة الباردة بأحجارها وعلاقات الحبّ في بلاطها، ركّزت على النسج عديم التساوي في القماش، على بقعة خضراء بحجم العملة المعدنية – كيف حدثت في هذا المكان؟ - وعلى خيط معلّق يتحرك مع تيارات الهواء.

كانت تحاول تجنّب التفكير في المستقبل القريب، أو الماضي، وتصوّرت نفسها متعلقة باللحظة الحالية، الحاضر الثمين، مثل

متسلق دون حبال أمانٍ على جرف منحدر صخري، تضغط وجهها بشدة على الصخرة، لا تجرؤ على الحراك، أخذ الهواء المنعش بالتراقص بلطف على ساقيها العاريتين.

استمعت إلى أصوات الأمواج البعيدة، ونداءات نوارس الرنجة، وحفيف ملابس إدوارد وهو يخلعها، ها قد عاد الماضي على أيّ حال، الماضي الضبابي الذي جلبته رائحة البحر، كانت في الثانية عشرة من عمرها، ومستلقية كما تفعل الآن في سَرير مَبِيتٍ ضيّق ذي جوانب من خشب الماهوجني المصقول في مركب أبيها. تنتظر، ترتعش، وكان ذهنها خاويًا، شعرت بالهوان بعد عبور صعب للمياه الهائجة استغرق يومين، والآن وصلا أخيرًا إلى سكينة مرفأ كارتيريت في جنوب شيربورغ. كان وقتًا متأخرًا من المساء ووالدها يتحرّك في المقصورة الضيقة المعتمة، ينزع ملابسه، كما يفعل إدوارد الآن، تذكّرت حفيف ثيابه، وخشخشة صادرة عن حلّ حزامه أو ربما عن مفاتيحه أو بعض العملات المعدنية الحرة في جيبه. مهمّتها الوحيدة طوال عبور المياه كانت إبقاء عينيها مغلقتين والتفكير في لحن تحبه، أو أيّ لحن. تذكّرت الرائحة الحلوة الأشبه برائحة أطعمة توشك على الفساد في جوّ قمرات المراكب المغلقة بعد الرحلات الصعبة المشابهة، وعادة ما كانت تمرض عدة مرات خلالها. لم تكن ذات جدوى كبحّار بالنسبة إلى والدها، وهو سبب شعورها بالهوان، وهو ما تشعر به الآن نحو إدوارد، فلم تكن قادرة على تجنب التفكير في مستقبلها القريب.

كانت تأمل أن القادم، أيًا كان، سوف يعيد إليها نوعًا من ذلك الشعور الممتع الذي يأخذ بالانتشار، ويتزايد ليغمرها، يخدّر كلّ مخاوفها، ويخلصها من العار، لكن احتمال حدوث ذلك يبدو

ضئيلًا، الذاكرة الحقيقية عن الشعور بهذا الإحساس، عن ماهية الوجود داخله، ومعرفته حقًا، كانت قد تقلصت إلى حقيقة تاريخية جافّة، لقد حدث الأمر مرة، كما حدثت موقعة هايستينج، مع ذلك فقد كانت فرصتها الوحيدة وهذا ما يجعلها ذات قيمة، تمامًا مثل آنية كريستالية أثرية يمكن كسرها بسهولة، سبب آخر كي لا تتحرك من مكانها.

شعرت بالسرير يهتزّ ويغوص، بينما صعد إدوارد عليه، وصار وجهه هو المشهد الذي تراه عوضًا عن خيمة السرير، رفعت رأسها وهي تشعر بالتزام لرفعه حتى يضع ذراعه تحته مرة ثانية كوسادة، ضمّها إليه بشدة على طول جسده، كانت تشاهد العتمة داخل منخريه، وراقبت شعرة مجعدة وحيدة في منخره الأيسر، تقف كما لو كانت رجلًا منحنيًا أمام كهف، ترتعش مع كل زفير، أحبت الخطوط الحادّة التي تشبه شكل الوسام على حوافّ شفته العليا، على يمين الخطّ الواصل بين أنفه وفمه كانت توجد شامة وردية، نقطة بارزة ضئيلة بحجم رأس الدبّوس، بدايات لظهور بثرة أو ربما نهايات تلاشيها، شعرت بانتصاب عضوه على وركها، قاسيًا كعصى المكنسة ونابضًا، لكنها ولدهشتها لم تمانع حقًا، ما لم ترده، على الأقل الآن، هو أن تنظر إليه، ليختم اتحادهما، أخفض رأسه وتبادلا القبل، لسانه بالكاد يمشط رأس لسانها، وكانت ممتنة له من جديد، مدركين لصمت الطابق السفلي – لا راديو ولا أحاديث – تبادلا عبارة "أنا أحبك"، أراحها أن تستحضر، وإن كان بصمت، التركيبة المتينة التي تربطهما، والتي أثبتت بالتأكيد تطابق اهتماماتهما، تساءلت إن كانت ربما ستقدر على النجاح في اجتياز

هذا الأمر، أن تكون قوية كفاية لتتظاهر بشكل مقنع هذه المرة والمرات التالية المتعاقبة وتقلّل من قلقها بالاستسلام للألفة وحدها، حتى تصل إلى منح المتعة وتلقيها بصدق.

لا حاجة به أن يعلم، على الأقل ليس قبل أن تخبره هي عن الأمر كقصة طريفة بعد أن يغمرها دفء ثقتها الجديدة – تحكي له كيف كانت في الماضي مجرد فتاة جاهلة، تعسة في مخاوفها الحمقاء.

لم تمانع لمسه ثدييها، حتى في هذه اللحظة، الأمر الذي كان يجعلها في الماضي تجفل مبتعدة عنه، هناك أمل لها، مع هذه الفكرة اقتربت أكثر من صدره، كان لا يزال يرتدي قميصه، كما اعتقدت، لأن وسائل منع الحمل كانت في جيبه العلوي، سهلة الوصول، جالت يده على طول جسدها، ثم سحبت حاشية تنورتها حتى خصرها، لطالما كان متحفظًا عن الحديث حيال الفتيات اللواتي مارس الحب معهن، لكنها لم تشكّ بغنى خبرته، شعرت بالنسيم الصيفي يدغدغ شعر عانتها المكشوف، وأصبحت متوغلة عميقًا في أراضٍ جديدة، أبعد من أن تستطيع الرجوع، لم يخطر ببالها سابقًا أن التمهيدات لممارسة الحب يمكن أن تتخذ مكانها في عرض غبي كهذا، في صمت قوي ومراقب، لكن خلاف "أنا أحبك" الواضحة، ما الذي يمكن أن تقوله هي نفسها دون أن يبدو مصطنعًا وأحمق؟ وبما أنه كان صامتًا فقد اعتقدت أن الصمت هو العرف في حالات كهذه، كانت تفضّل لو أنهما غمغما عبارات الغزل السخيفة التي اعتادا ترديدها أثناء استلقائهما في حجرة نومها في شمال أكسفورد، بكامل ملابسهما، يبددان فترات ما بعد الظهيرة، احتاجت أن تشعر بالقرب منه لتبقي شيطان الخوف الذي تعرف أنه مستعد لغمرها في أية لحظة، تحت

السيطرة، احتاجت أن تعرف أنه معها، إلى جانبها، وأنه لن يستعملها، أنه كان صديقها وكان لطيفًا ورقيقًا.

وإلا سوف يسوء كل شيء، بطريقة وحيدة للغاية، كانت تعتمد عليه ليمنحها هذا الاطمئنان، أبعد من الحب، وأخيرًا لم تستطع منع نفسها من إصدار الأمر التافه، "قل لي شيئًا ما"، إحدى الفوائد الفورية والحميدة كانت أن يده توقّفت عن التحرّك بشكل مفاجئ، في مكان لا يبعد كثيرًا عن حيث كانت من قبل، بضعة إنشات أسفل سُرّتها، حدّق فيها إلى الأسفل، شفتان ترتعشان قليلًا – ربما أمر عصبي، أو ابتسامة على وشك الارتسام، أو فكرة تتشكل في كلمات.

شعرت بالراحة وهو يتجاوب سريعًا ويلجأ إلى شكل مألوف من الحماقة، قال بهدوء، "تمتلكين وجهًا حلوًا وطبيعة جميلة، مرفقين وكاحلين مثيرين، ترقوة ناعمة وجمجمة جميلة وطريقة عزف اهتزاز يعشقها أيّ رجل، لكنك بأكملك لي وأنا مسرور وفخور للغاية"، "حسنٌ جدًا، تستطيع الآن تقبيل عزف الاهتزاز الخاص بي" أجابته، أخذ يدها اليسرى وبدأ بمصّ أطراف أصابعها بالتناوب ومرّر لسانه على نسيج يدها حيث يتكئ الكمان، تبادلا القبل، وفي هذه اللحظة التي شعرت فيها فلورنس بتفاؤل نسبي، تصلبت ذراعاه، وتدحرج فوقها فجأة بحركة رياضية بارعة، ورغم تركز معظم وزنه على مرفقية وذراعيه على جانبَي رأسها فإنها كانت مثبتة وعاجزة تمامًا، ومقطوعة الأنفاس إلى حدٍّ ما تحت جسده، شعرت بخيبة أمل لأنه لم يطل مداعبة منطقة عانتها مجددًا مرسلًا تلك الإثارة الغريبة لتنتشر في جسدها، لكن انشغالها الجديد – تطورٌ على مستوى النفور أو الخوف – كان هو الحفاظ على المظاهر، ألا تخذله أو تهين نفسها،

وألا تبدو خيارًا سيئًا بالمقارنة مع كل النساء اللواتي سبق له معرفتهن، كانت مصمّمة على النجاح في هذا الأمر، لن تدعه يعرف حجم الصراع داخلها، ماذا كلّفها هذا الهدوء الذي يبدو عليها، لم تمتلك أيّ رغبة أخرى خلاف إسعاده وإنجاح هذه الليلة، ولم تمتلك أيّ شعور سوى شعورها بنهاية قضيبه، حرارته معتدلة بشكل غريب، يطعن ويهتز نحوَ وحَولَ مجرى بولها، اعتقدت أنها تسيطر على ذعرها وتقززها، إنها تحب إدوارد، وكل تركيزها ينصبّ على مساعدته في الحصول على الشيء الذي يريده بلهفة وجعلِه يحبها أكثر وأكثر، وبهذه الأفكار زلّقت يدها بين فخذيها وفخذيه، رفع نفسه قليلًا ليتيح لها الوصول، كانت مسرورة لتذكّر نصيحة الكتيب الأحمر بأنه من المقبول تمامًا مبادرة العروس في "توجيه الرجل نحو الداخل".

عثرت على خصيتيه أولًا، دون خوف على الإطلاق هذه المرة، ثنت أصابعها برقة حول هذا الشيء المنفوش الغريب الذي سبق لها رؤيته بأشكال مختلفة عند الأحصنة والكلاب، لكنها لم تكن تصدّق حقًّا بأنه يمكن أن يتسع بشكل مريح عند البشر البالغين، مرّرت أصابعها أسفل الخصيتين حتى وصلت إلى قاعدة قضيبه، أمسكته بعناية فائقة لأنها لم تكن تعلم مدى حساسيته أو قوته، تابعت تمرير أصابعها على طوله وهي تلاحظ باهتمام ملمسه الحريري حتى وصلت إلى رأسه الذي بدأت تمسيده بخفة، ثم فاجأت نفسها بشجاعتها وهي تتراجع قليلًا إلى الخلف وتقبض على قضيبه بإحكام من وسطه ثمّ تشده إلى أسفل، تعديل بسيط في وضعيتها حتى شعرت به يلامس شفرتيها.

كيف لها أن تعرف حجم الخطأ الفظيع الذي كانت ترتكبه؟

هل سحبت الشيء الخاطئ؟ هل قبضت عليه أقسى من اللازم؟ أطلق أنّة، سلسلة معقدة من أصوات التألم المتزايدة، ذلك النوع من الأصوات الذي سبق لها سماعه في فيلم كوميدي حين كاد نادل يحمل تلّة من أطباق الحساء ويترنّح في كل الاتجاهات، كاد يسقطها جميعًا، أفلتته برعب، بينما نهض إدوارد بنظرة حائرة على وجهه، وظهره الرجولي يتقوّس بالتشنجات وأفرغ سائلًا فاترًا ولزجًا ليملأ صرتها ويغطي بطنها، فخذيها، وحتى جزءًا من ذقنها وركبتها، كان الأمر كارثيًا وعلمت فورًا أنها المخطئة، أنها خرقاء، جاهلة وغبية.

لم يكن عليها التدخل أو تصديق الكتيّب، لو أن وريده قد انفجر لما بدا الأمر بالسوء الذي يبدو عليه الآن، أمر تقليدي، ثقتها الزائدة عن اللزوم تتدخل في أمور فائقة التعقيد، كان عليها الإدراك أن تصرفاتها في التمارين للرباعي الوتري لم تكن لتنجح هنا.

فضلا عن عامل آخر أسوأ بكثير وخارج عن إرادتها تمامًا، استحضار ذكريات كانت قد قرّرت منذ أمد بعيد أنها ليست ذكرياتها حقًا، كانت قد شعرت بالفخر منذ نصف دقيقة وحسب حيال إتقانها لمشاعرها والظهور بهيئة هادئة لكنها الآن عاجزة عن كبت تقززها الغريزي، الرعب في أحشائها بسبب انغمارها بالسائل، بمادة هلامية صادرة عن جسد آخر والتي أصبحت شديدة البرودة على جلدها خلال ثوانٍ بفعل نسيم البحر، مع ذلك، كما علمت أنه سيحدث، بدت المادة كأنها تحرقها، لا شيء في طبيعتها يمنعها من الصراخ فورًا بتقزز.

شعور المادة وهي تزحف على جلدها مثل جداول لزجة، طبيعتها الحليبية الغريبة، رائحتها النشوية الحميمة، والتي جرّت

معها نتن السرّ المخزي المحبوس في سجن عفن – لم تستطع منع نفسها، كان عليها التخلص منها، بينما تقلّص عضو إدوارد أمامها، استدارت وخرّت على ركبتيها، ثم اختطفت وسادة من تحت غطاء السرير وبدأت بمسح جسدها بشكل محموم.

كانت تعلم بأن تصرفها كريه وفظّ، حتى وهي تقوم به، كيف ستزداد تعاسته حين يراها تستميت لإزالة هذا الجزء منه عن جلدها، الأمر الذي لم يكن في الواقع سهلًا، إذ إن سائله التصق بجسدها بينما لطخت نفسها به، وكان قد بدأ يجفّ في بعض الأماكن ليتحول إلى قشرة متشققة، انقسمت إلى شخصين – أحدهما قذف الوسادة بسخط، والآخر راقب وكره نفسه لما يفعله، لم تكن تحتمل مشاهدته لها، المرأة القاسية الهستيرية التي تزوجها بغباوة، قد تكرهه لما يشهده الآن وسوف لن تنسى أبدًا، كان عليها الفرار منه.

قفزت من السرير في سعار غضبها وعارها، كانت ذاتها الأخرى تراقبها وتتكلم معها بهدوء دون كلمات حقيقية، لكن هذا هو حال الغضب، لم تستطع النظر إليه، كانت تتعذب لمجرد الوجود في غرفة واحدة مع شخص شهدها على هذه الحال، خطفت حذاءها عن الأرض وركضت عبر غرفة الجلوس مجتازة أطلال وجبتهما، نحو الممر، ثم هبطت السلالم، وخرجت عبر المدخل الرئيس، حول جانب الفندق وعبر المرج ذي الطحالب، وحتى حين وصلت الشاطئ، لم تتوقف عن الركض.

الفصل الرابع

في السنة القصيرة التي مرّت بين أوّل لقاء لإدوارد بفلورنس في سانت غيلز وزفافهما الذي جرى في سانت ماري على بُعد أقلّ من نصف ميل، كان إدوارد يقضي العديد من الليالي ضيفًا في قصرِ فيكتوريّ الطراز على طريق بانبيري، حيث خصصت له فيوليت بونتنغ ما كانت العائلة تسميه "الغرفة الصغيرة"، في الطابق الأعلى، بعيدة بشكل عفيف عن غرفة فلورنس، مع إطلالة على حديقة بامتداد مئة ياردة، مسيّجة بجدرانٍ تقع خلفها أراضي جامعة أو أشخاص مسنين، لم يكلف نفسه حقًا عناء التدقيق في هذا الأمر.

تفوق "الغرفة الصغيرة" في حجمها جميع غرف النوم الموجودة في منزل تيرفل هيث الريفي، وهي على الأرجح أكبر من غرفة الجلوس كذلك، أحد الجدران كان مغطى بأكمله بأرفف مطلية بالأبيض الناصع، والتي ترتصف عليها إصدارات "لويب" باللاتينية واليونانية، أحبَّ إدوارد الانخراط بهذه الطريقة من التعلم التقشفي، لكنه كان يدرك أنه لا يخدع أحدًا بترك نسخ من كتب أبكتيتوس وسترابو على المنضدة بجوار السرير، كانت جدران غرفته مطلية بالأبيض بشكل غريب، تمامًا كباقي جدران المنزل – لم تكن هناك قصاصة واحدة من ورق الجدران في كل محيط آل بونتنغ، سواء برسومات الأزهار أو الخطوط – كما أنَّ الأرضية كانت عارية، مصنوعة من ألواح الخشب غير المعالج، وامتلك هو الطابق العلوي بأسره ليتحرّك فيه وحمّامًا واسعًا في منتصف السلالم، فضلا عن نوافذ ذات زجاج ملون على

الطراز الفيكتوري وبلاط مصنوع من الفلين ومطلي بالورنيش – وهو بدعة أخرى أيضًا، أمّا سريره فقد كان واسعًا وصلبًا بشكل غير طبيعي، في إحدى الزوايا وتحت جزء منحنٍ من السقف، استقرّت طاولة من الخشب اللين المنعّم وفوقها مصباح زاوية وكرسي مطبخ مطلي بالأزرق.

لم تكن هنالك صور أو سجادات أو تحف، لا قصاصات مجلات أو أيّة بقايا قد تخلفها ممارسة الهوايات أو تنفيذ المشاريع، للمرة الأولى في حياته بذل جهدًا جزئيًا ليحافظ على الترتيب، لأن هذه الغرفة لا تشبه أيّ غرفة أخرى يعرفها، غرفة يمكن للمرء فيها أن يحظى بأفكار هادئة ومنسقة، في هذه الغرفة بالذات وفي منتصف ليل نوفمبري رائع، كتب رسالة رسمية لفيوليت وجيوفري بونتنغ يفصح فيها عن أمله في الزواج من ابنتهما، ولم يطلب إذنهما في الرسالة بقدر ما توقع بثقة موافقتهما.

وقد أصاب في تفكيره، إذ إنهما بديا مبتهجين، وصادقا على الخطوبة بغداء عائلي يوم أحدٍ في فندق راندولف، لم يمتلك إدوارد المعرفة الكافية عن العالم ليفاجئه ترحيب آل بونتنغ به في منزلهم، تعامل مع الموضوع بأدب على أنه واجب طبيعي تجاهه لكونه حبيب فلورنس لوقت متواصل ثم خطيبها، وأنه حين يسافر متطفلًا أو يستقلّ القطار من هينلي إلى أكسفورد فسيجد غرفته جاهزة دومًا لاستقباله، وسيتناول وجبات يطلبون منه فيها التحدث عن آرائه حول الحكومة وشؤون العالم، وأنه سيحظى بجولة في المكتبة والحديقة ذات ملعب الكروكيه والملعب المعلَّم لتنس الريشة، لقد شعر بالامتنان، لكنه لم يكن متفاجئًا على الإطلاق حين وجد ملابسه

تتلاشى ضمن غسيل العائلة، ثم تظهر في كدسة مرتبة ومكوية على ذيل سريره، مجاملةً من السيدة المسؤولة عن التنظيف والتي كانت تحضر إلى المنزل يوميًا.

بدا من الصواب تمامًا أن يرغب جيوفري بونتنغ بلعب التنس معه في الملاعب العشبية في سامرتاون، كان إدوارد لاعبًا متوسط البراعة – قادرًا على ضربة إرسال معقولة باستخدام طول قامته، كما يستطيع صدّ بعض الضربات القوية من خط المرمى، لكنه كان أخرق وغبيًا عند الشبكة ولم يستطع الثقة بضربته المتمردة بظهر المضرب، فيفضّل الجري نحو الضربات الآتية إلى يساره، شعر ببعض الوجل من والد حبيبته، قلقًا من أن يعتقده متطفلًا، محتلًا، لصًا ينتوي الاعتداء على عذرية ابنته قبل أن يختفي – الأمور التي كان واحد منها صحيحًا وحسب، قلق إدوارد أثناء قيادتهم نحو الملعب حول اللعبة نفسها – من غير اللائق أن يفوز عليه، لكنه سيهدر وقت مضيفه إن لم يكن قادرًا على تقديم شيء من المنافسة اللائقة، لم يكن هناك داعٍ لقلقه حيال أيٍّ من الأمرين.

كان بونتنغ لاعبًا من مستوى آخر، صاحب ضربات قوية ودقيقة ويمتلك حيوية مزهوة ومذهلة بالنسبة لشخص في الخمسين من عمره، وهكذا فاز في المجموعة الأولى بستٍّ نقاط مقابل نقطة واحدة، وفي المجموعة الثانية بستٍّ نقاط مقابل لا شيء، وفي الثالثة بستٍّ نقاط مقابل نقطة واحدة، لكن الأهم هو كيف كان يستشيط غضبًا كلما نجح إدوارد في اختطاف نقطة منه، وفيما كان يعود إلى موقعه كان اللاعب الأكبر سنًا يلقي على نفسه

متمتمًا محاضرة استطاع إدوارد أن يسمع منها من جانبه

احتواءها على تهديدات بالعنف ضد الذات، في الواقع، كان بونتنغ يضرب إليته اليمنى بالمضرب بقسوة بين الفينة والأخرى، لم يرد أن يفوز فحسب، أو أن يفوز بسهولة، بل احتاج الحصول على كل النقاط، جعلته النقطتان اللتان خسرهما في المجموعتين الأولى والثالثة وبعض الأخطاء التلقائية التي ارتكبها، على حافة الصراخ – آه بحق الرب يا رجل! هيّا! – بقي بعدها في طريق العودة إلى المنزل مقتضبًا، تمكّن إدوارد على الأقل من الشعور بأن الاثنتي عشرة نقطة التي سجلها خلال المجموعات الثلاثة تعتبر نصرًا من نوع ما، لو أنه فاز بالطريقة التقليدية لما سُمح له بمواعدة فلورنس مرة ثانية.

كان جيوفري بونتنغ بشكل عام وعلى الرغم من أسلوبه العصبي والنشيط دمثًا مع إدوارد، حين يعود من العمل في حدود الساعة السابعة ويجد إدوارد في المنزل فإنه كان يمزج لكليهما كأسين من الجن والتونيك من خزانة المشروبات – مقدارين متساويين من التونيك والجن، والكثير من مكعبات الثلج، بالنسبة لإدوارد فقد كان الثلج في المشروبات نوعًا من البِدع، كانا بعدها يجلسان في الحديقة ويتحدثان عن السياسة – في الغالب كان إدوارد ينصت لآراء حماه المستقبلي عن تراجع الأعمال البريطانية ونزاعات ترسيم الحدود في النقابات الحرفية، وحماقة منح الاستقلال للعديد من المستعمرات الأفريقية، لم يسترخِ بونتنغ حتى عندما كان جالسًا – كان يوازن جسمه على حافة الكرسي، مستعدًا للقفز منه، ويهزّ ركبته إلى الأعلى والأسفل بينما يتحدث، أو يذبذب أصابع قدميه داخل صندله بالتزامن مع لحن يردده في عقله، كان أقصر قامة من إدوارد بكثير لكنه قوي البنية بذراعين رجوليتين مغطاتين بالشعر الأشقر وقد

أحبّ عرضهما عبر ارتداء قمصان ذات أكمام قصيرة، حتى حين يذهب إلى العمل، كما أن رأسه الأصلع بدا تأكيدًا على القوة أكثر منه دليلًا على التقدم في السن – بشرته المسمرة كانت مشدودة وتمتد مستوية كالأشرعة الملئ بالريح، على جمجمة كبيرة، وجهه أيضًا كان كبيرًا، وامتلك شفتين صغيرتين ممتلئتين تدلّان وضعيتهما الطبيعية على تجهم ثابت، وأنفًا يشبه الزر، وعينين متباعدتين بحيث كان يبدو في إضاءة معينة مثل جنين عملاق.

لم تبدُ على فلورنس الرغبة في الانضمام إليهما في أحاديث الحديقة هذه، وربما لم يردها بونتنغ هناك، لاحظ إدوارد أن الأب والابنة نادرًا ما يتبادلان الحديث ما لم يكونا في جماعة، وحتى عندها فهما يتحدثان في أمور تافهة، لكنه اعتقد أنهما منتبهان لبعضهما بشدة، وأنهما يتبادلان النظرات حين لا يراهما أحد آخر، كأنهما يتشاركان نَقْدًا سِريًّا لما حولهما.

لطالما أحاط بونتنغ كتفي روث بذراعه، لكنه لم يعانق أختها الكبرى مطلقًا، على الأقلّ ليس أمام إدوارد، على الرغم من ذلك فقد كان بونتنغ يشير إليهما بسعادة كبيرة مستعملًا عبارات مثل "فلورنس وأنت" أو "أنتم أيها الشباب"، لقد كان هو وليس فيوليت من أخذته أشدّ الحماسة لخبر خطبتهما ورتّب تفاصيل الغداء في فندق رودولف، كما أنه قدّم نصف دزينة من الأنخاب هناك، لقد مرّت الفكرة في ذهن إدوارد، بالكاد بجدية، بأنه كان متلهفًا أكثر من اللازم لتزويج ابنته.

وكان في هذه المرحلة أن اقترحت فلورنس على والدها إمكانية كون إدوارد نافعًا لشركته، وهكذا اصطحبه بونتنغ في سيارته من

طراز همبر أحد أيام السبت إلى معمله على أطراف بلدة ويتني، حيث يتمّ تصميم وتجميع أدوات علمية مملوءة بالترانزستورات.

لم يبدُ عليه الانزعاج حينما مرا بين فروع الأشجار المتشابكة، عبر الرائحة المألوفة للّحام المنصهر، إلى درجة أن إدوارد المخدر تمامًا بالعلم والتكنولوجيا، لم يستطع التفكير بسؤال واحد مهم ليسأله، لكنه انتعش قليلًا حين قابل في غرفة خلفية بلا نوافذ، مدير المبيعات الأصلع ذا التسعة والعشرين عامًا، الذي كان يمتلك شهادة في التاريخ من جامعة دورهام وكان قد كتب أطروحته لنيل شهادة الدكتوراة حول رهبنة العصور الوسطى في شمال شرق إنجلترا، في تلك الأمسية وأثناء احتساء الجن والتونيك، قدَّم بونتنغ عرض عمل لإدوارد يسافر فيه من أجل مصالح الشركة وتأمين صفقات جديدة لها، كان عليه القراءة عن المنتجات والقليل عن الإلكترونيات، ومقدارًا أقل عن قانون العقود، إدوارد الذي لم تكن لديه أية خطط على صعيد العمل والذي استطاع بسهولة تخيل نفسه يؤلف كتبًا تاريخية في القطارات وغرف الفنادق بين الاجتماعات، وافق على عرض بونتنغ من باب الأدب أكثر من الاهتمام الحقيقي.

كما أن الأعمال المنزلية التي تطوع لعملها، ربطته أكثر بآل بونتنغ، ففي ذلك الصيف من عام 1961 عمل على جزّ عشب المروج الكثيرة لمرات عديدة – حين كان الجنائني مريضًا – وتقطيع ثلاث كوردات من الأخشاب لمخزن الحطب، وقيادة السيارة الثانية من طراز أوستن 35 إلى المنحدر محملة بالخردة من الكراج الذي لا يستعملونه والذي أرادت فيوليت تحويله إلى ملحق للمكتبة، في هذه السيارة نفسها – لم يسمح له أبدًا بقيادة السيارة من طراز همبر –

قام بتوصيل شقيقة فلورنس، روث، لزيارة أصدقائها وأقربائها في بلدتَي ثايم وبانبري ومقاطعة ستراتفورد، ثم أعادها إلى المنزل.

لقد قاد السيارة بفيوليت في كل مكان، في إحدى المرات صحبها إلى ندوة عن شوبنهاور وفي الطريق أخذت تعذبه لاهتمامه بالطوائف الألفية، ما الدور الذي تلعبه المجاعات أو التغييرات الاجتماعية في تأمين الأتباع؟ بمعاداتهم للسامية ومهاجمتهم للكنيسة والتجار، ألا يمكن النظر إلى هذه الحركات على أنها شكل مبكر من الاشتراكية من النوع الروسي وبشكل استفزازي؟ ألم تكن الحرب النووية هي المقابل الحديث لنهاية العالم التي وردت في سِفر الرؤيا، أوَ لسنا محكومين بتاريخنا وطبيعتنا المذنبة أن نحلم بفنائنا؟

أجاب بعصبية، مدركًا أن هذه الاسئلة اختبار لمعدنه الثقافي، بينما تحدّث، كان يقود السيارة بهما على أطراف مدينة ونشستر، رآها من زاوية عينه تخرج علبة من البودرة المضغوطة وتستعملها على ملامحها البيضاء النحيلة، لقد كان مذهولًا بشحوبها، ذراعيها اللتين تشبهان الأعمدة ومرفقيها المدببين، وتساءل مجددًا إن كانت حقًا والدة فلورنس، لكن الآن كان عليه التركيز فضلا عن القيادة، أخبرها باعتقاده أن الفوارق بين ذلك الوقت والآن أكثر أهمية من التشابهات، إنه الفرق من جهة بين خيال متقد وعبثي ألّفه متصوف عاش في حقبة ما بعد العصر الحديدي، ثم جرت زخرفة هذا الخيال على يد أمثاله السذّج في العصور الوسطى، ومن جهة أخرى نتيجة الخوف العقلاني من حدثٍ محتملٍ ومرعب في مقدورنا منعه.

ردّت عليه بنبرة توبيخ جازمة أنهت الحوار بفعالية، أخبرته أنه لم يفهم ما ترمي إليه، لم تكن الأهمية تكمن فيما إن كان أتباع

الطوائف في العصور الوسطى مخطئين حيال تفسيرهم لسِفر الرؤيا ونهاية العالم، بالطبع كانوا مخطئين، لكنهم آمنوا بصواب رأيهم بشغف، وتصرفوا حسب معتقداتهم.

بشكل مشابه آمن هو أيضًا بحتمية قضاء الأسلحة النووية على العالم، وتصرَّف على هذا الأساس، لم يكن هنالك أهمية لكون اعتقاده خاطئًا وأنَّ الحقيقة كانت في الواقع تحمي العالم من الحرب، ففي النهاية كان هذا هو الغرض من سياسة الردع، وعلّمه تخصصه في التاريخ أن الأوهام الضخمة على مرّ العصور تتشارك بالكثير من المواضيع، حين أدرك إدوارد أنها كانت تربط بين دعمه لحملة نزع السلاح النووي وعضويته في الطائفة الألفية، انسحب بأدب واستمرّا في رحلة السيارة للنصف ميل المتبقي في صمت، في مناسبة أخرى أوصل فيوليت إلى بلدة شلتنهام ثم أعادها منها، وهناك ألقت محاضرة في كلية السيدات لطلاب المرحلة الثانوية حول فوائد الدراسة في أكسفورد.

الفوائد التي حازها هو كانت تتقدم بإيقاع منتظم، خلال ذلك الصيف تناول للمرة الأولى سلطة مع ليمونة وتتبيلة من الزيت، وتناول لبنًا على الفطور، وهو مادة فتّانة اكتشفها لأول مرة في إحدى روايات جيمس بوند، لم يكون بمقدور طعام والده المعدّ بمشقة كبيرة، ونظامه الغذائي الذي اعتمد أيام دراسته على الفطائر ورقائق البطاطا، أن يعدّاه للخضار الغريبة – الباذنجان، الفليفلة الخضراء والحمراء، الكوسا وقرون البازلاء – التي أصبحت تقدم له بشكل دوري.

شعر بالمفاجأة وبعض الاستفزاز في زيارته الأولى حين قدمت

فيوليت البازلاء نصف المطهوة كطبق أول، كان عليه تجاوز اشمئزازه، ليس من طعم الطبق بقدر قلقه من سمعة الثوم، قهقهت روث لعدة دقائق في كل مرة حتى تعيّن عليها مغادرة الغرفة عندما اعتقد أن خبز الباغيت هو معجنات الكروسان، لكنه في وقت سابق جعل آل بونتنغ يعجبون به عندما أخبرهم أنه لم يسافر خارج البلاد قط، عدا الذهاب إلى اسكوتلندا لتسلق قمم شبه جزيرة نويدارت الثلاث، لقد تعرّف للمرة الأولى في حياته على الموزلي، الزيتون، الفلفل الأسود الطازج، الخبز من دون زبدة، الأنشوفة، لحم الخروف نصف المطهو، جبنة لم تكن جبنة التشيدر، الراتاتوي، البسطرمة، حساء ثمار البحر، وجبات كاملة من دون بطاطا، لكن الأصعب كان معجونًا ورديًا بطعم سمكي اسمه تاراما سالاتا، كان طعم العديد من هذه الأطباق منفرًا بعض الشيء، ويتشابه مع بعضه بطريقة لا يمكن تحديدها، لكنه عقد العزم على ألا يبدو ساذجًا، حين يتناول الطعام أسرع من اللازم في بعض الأحيان كان يقترب من التقيؤ، لكنه اعتاد على بعض البدع الأخرى بسرعة، القهوة المفلترة والمحضّرة من حبوب البن المطحونة للتوّ، عصير البرتقال على الفطور، كونفيت البطّ والتين الطازج، لم يكن مدركًا حقًا للوضع غير الاعتيادي لآل بونتنغ، محاضِرة في الجامعة متزوجة من رجل أعمال ناجح، فيوليت التي كانت في مرحلة ما صديقة إليزابيث ديفيد، تدير شؤون المنزل في طليعة ثورة الطبخ بينما تحاضر الطلاب حول الكائنات الدقيقة أحادية الخلية والحتمية الفئوية، تشرّب إدوارد جميع هذه الظروف المنزلية دون الاعتراف باستفاضة العائلة بالغرابة، لقد افترض أنَّ جميع مدرسي جامعة أكسفورد يعيشون بهذه الطريقة، ولن يسمح

لأحد برؤيته منبهرًا.

كان مفتونًا، يعيش في حلم، خلال ذلك الصيف الدافئ لم تعد رغبته تجاه فلورنس منفصلة عن المشهد بأكمله – الغرف البيضاء الضخمة وأرضياتها الخشبية التي لا تعرف الغبار والدافئة بفعل أشعة الشمس، النسيم اللطيف الأخضر الذي تبثه الحديقة المتشابكة داخل المنزل عبر النوافذ المفتوحة، البراعم العطرة لشمال أكسفورد، الكتب الحديثة بأغلفتها السميكة مكوّمة على الطاولات في المكتبة – الإصدارات الجديدة لكتّاب مثل: آيريس مردوك (كانت صديقة لفيوليت)، نابوكوف، آنغوس ويلسون – وتعرّفه لأول مرة على مشغل الاسطوانات، أرته فلورنس في صباح ما الصمامات المكشوفة المشعة بلون برتقالي لمضخم الصوت بارزة من صندوق رمادي أنيق، ومكبرات الصوت بارتفاع الخصر، ثم شغّلت له على ارتفاع صوت فظيع سمفونية هافنر من تأليف موزارت، استحوذت عليه القفزة الموجودة في افتتاحية الثمانيّة بوضوحها الجريء – تجلّت فرقة أوركسترا كاملة أمام عينيه – رفع قبضته وصرخ عبر الغرفة، غير آبه بمن قد يسمع، إنه يحبها، كانت المرة الأولى التي يقول فيها هذه الكلمات، سواء لها أو لأيّ فتاة أخرى، ردّدت أنها تحبه هي أيضًا، وضحكت ببهجة لأنه قد تأثر أخيرًا بقطعة من الموسيقا الكلاسيكية، عَبَر الغرفة وحاول أن يراقصها، لكن الموسيقا أصبحت منطلقة وجياشة فوصلا إلى نهاية مسدودة وتركاها تحوم حولهما بينما تعانقا.

كيف يمكن له الادّعاء أنه ضمن وجوده الضيق لم تكن هذه التجارب فريدة من نوعها؟ لقد استطاع ألا يفكر بالموضوع، بطبيعته لم يكن من الأشخاص الذين يفكرون بعمق، وساعد التجول في

منزلها بانتصاب دائم، أو هكذا شعر، في تبليد أفكاره والسيطرة عليها نوعًا ما، عملًا بالقوانين الضمنية للمنزل، كان يُسمح له بالاسترخاء على سريرها خلال النهار، بينما كانت هي تتدرب على عزف الكمان طالما يُبقيان باب الغرفة مفتوحًا، يُفترض به أن يقرأ في هذا الوقت، لكن كلّ ما كان يفعله هو مراقبتها وعشق ذراعيها العاريتين، طوق شعرها، ظهرها المستقيم، الميلان البسيط لذقنها بينما دسّت الآلة الموسيقية تحته، ظِلّ تحدب صدرها على النافذة، والطريقة التي تهتزّ بها حوافّ تنورتها القطنية فوق ربلتَي ساقيها المسمّرتين مع انحنائها، بينما تتموج العضلات الصغيرة في الربلتَين أثناء تحركها وتمايلها، بين الفينة والأخرى، كانت تتنهد مشتكية من عيب تخيُّلي في النغمة أو الصياغة فتعيد عزف المقطع مرارًا وتكرارًا.

كما أن الطريقة التي كانت تقلّب بها الصفحات فوق حامل النوتات كانت مؤشرًا آخر على مزاجها، تتجاوز مقطوعةً تقصم المعصم بحدة، أو تطيل عندها في مرات أخرى، مسرورة بأدائها أخيرًا، أو أنها تتوقع متعًا جديدة، لقد جعله نسيانها التام لوجوده منفعلًا، تقريبًا مبهورًا – كانت تمتلك هبة التركيز المطلق، بينما يُمضي هو النهار بأكمله في ظلمة من الملل والإثارة الجنسية، قد تمرّ ساعة كاملة قبل أن يبدو عليها تذكّر وجوده في الغرفة، ومع أنها تلتفت إليه وتبتسم إلا أنها لم تقترب من السرير في أيّ مرة – طموح مهني شرس، أو ربما قانون ضمني آخر من قوانين المنزل أبقاها واقفة قرب حامل النوتات.

كان الاثنان يذهبان في نزهات عبر مرج بورت، صاعدين على طول نهر التايمز إلى نُزل بيرش أو نُزل ذا تراوت لاحتساء نصف ليتر من الشراب، حين لم يكونا يتحدثان عن مشاعرهما – كان إدوارد قد

بدأ يشعر بالتخمة من هذه الأحاديث – كانا يتكلمان عن طموحاتهما، تحدّث باستفاضة عن سلسلة من التواريخ القصيرة لشخصيات بالكاد يذكرها أحد والتي كانت لفترات قصيرة من الشخصيات العظيمة، أو امتلكت للحظات خاطفة نصيبها من المجد، وصف لها اندفاع السير روبرت كاري المتهور نحو الشمال، كيف وصل إلى بلاط جيمس ووجهه مغطى بالدماء بعد سقوطه عن حصانه، وكيف أن جميع أعماله لم تكسبه شيئًا، قرر إدوارد بعد حديثه مع فيوليت أن يضيف أعضاء الطوائف الذين تحدث عنهم نورمان كوهين، ومنهم المسيح المتسوط الذي عاش في عام 1360، والذي تحدث سفر أشعيا عن قدومه كما زعم هو وأتباعه، وزعم أن السيد المسيح كان مجرد مبشِّر بقدومه، لأنه هو إمبراطور الأيام الأخيرة كما أنه الرب بذاته، أطاعه أتباعه -الذين يضربون أنفسهم بالسوط- بشكل عبودي، وصلّوا له، كان اسمه كونراد شميد، وقد أحرقته محاكم التفتيش غالبًا على عمود في عام 1368، وانحلّت جماعة أتباعه الهائلة بكل بساطة بعد ذلك، حسب تصور إدوارد، فإن كلّ كتاب تاريخ يؤلفه لن يكون أطول من مئتَي صفحة وسوف يُطبع مع رسوم توضيحية وستنشره دار بنغوين، وربما حين تكتمل السلسلة ستصبح متوفرة في مجموعة خاصة موضبة في صندوق، بالطبع تحدثت فلورنس عن خططها لرباعي إنيسمور، في الأسبوع المنصرم كانت الفرقة قد ذهبت إلى جامعتها القديمة وعزفت المقطوعة الثانية من سمفونية رازوموفسكي لبيتهوفن أمام أستاذ فلورنس، وقد بدا عليه الحماس الواضح، أخبرهم على الفور أن أمامهم مستقبلًا باهرًا، وعليهم البقاء معًا والعمل بكل طاقتهم تحت أيّ ظرف، وشرح لهم ضرورة تكثيفهم

لذخيرتهم الفنية، التركيز على هايدن، موزارت، بيتهوفن وشوبار وترك شومان، وبراهامز وجميع مؤلّفي القرن العشرين حتى وقت لاحق، أخبرت إدوارد أنها لا تريد أيّ حياة أخرى غير هذه، وأنها لا تطيق فكرة تضييع سنوات حياتها في مقعد خلفي في إحدى الأوركسترات، على فرض أنها ستحصل على هذا المقعد أصلًا، مع الرباعي كان العمل محمومًا للغاية، والتركيز مطلبًا ضخمًا لأن كلّ واحد من الرباعي كان يعزف كأنه عازف فردي، وكانت الموسيقا رائعة الجمال وغنيّة بحيث إنهم في كل مرة يعزفونها يكتشفون شيئًا جديدًا.

قالت كل هذه الأمور وهي تعلم أن الموسيقا الكلاسيكية لا تعني شيئًا له، حسب رأيه فإنَّ أفضل طريقة استماع للموسيقا الكلاسيكية هي تشغيلها في الخلفية بصوت منخفض، دفقٌ من أصوات البكاء التي لا يمكن تمييزها، كشط وصفير يعتبران عادة دليلًا على الجدية والنضج واحترام الماضي، خالية كليًا من التشويق أو الإثارة، لكن فلورنس اعتقدت أنَّ صرخة النصر في افتتاحية سمفونية هافنر كانت تقدمًا باهرًا، لذلك دعته ليأتي معها إلى لندن ويحضر أحد التمرينات، كان مستعدًا للموافقة بالطبع، أراد مشاهدتها وهي تعمل، لكن الأمر الأهم كان فضوله لمعرفة فيما إذا كان عازف التشيللو، تشارلز، الذي ذكرته فلورنس أكثر من اللازم كان منافسًا له بأيّ شكل، إن كان كذلك، فقد قرّر إدوارد أنَّ عليه عرض وجوده.

بسبب ركود الحجوزات في فصل الصيف، سمحت إدارة غرفة العرض المجاورة لقاعة ويغمور للرباعي بالحصول على حجرة للتدريب مقابل أجر رمزي، وصل إدوارد وفلورنس قبل الباقين بوقت طويل لأنها أرادت أخذه في جولة حول القاعة، خطر له أنَّ الغرفة

الخضراء، الغرفة الضئيلة لتغيير الملابس وحتى المدرّج والقبة كانت كلها بالكاد تمتلك أيّ أهمية ولا تستحق هذا التبجيل الذي تكنّه لها، كانت شديدة الفخر بقاعة ويغمور، كما لو أنها صممتها بنفسها، قادته خارجًا على خشبة المسرح، وطلبت منه تخيل تشويق ورعب الوقوف هناك للعزف أمام جمهور نافذ البصيرة، لم يستطع التخيل، على الرغم من أنّه لم يفصح عن ذلك، أخبرته بحتمية قدوم ذلك اليوم، لقد عقدت عزمها: سيؤدّي رباعي إنيسمور هنا، يعزفون بجمال وينتصرون، أحبّها لعظمة وعدها، قبّلها ثم قفز هابطًا إلى المدرج متخطيًا ثلاثة صفوف من المقاعد، في الوسط تمامًا ثم تعهد أمامها أنه مهما حدث فسوف يكون هنا في ذلك اليوم، في هذا المقعد ذاته، C9، وسوف يقود موجة التصفيق والثناء في نهاية العزف.

حين بدأ التمرين جلس إدوارد صامتًا في زاوية الغرفة الفارغة في حالة من السعادة العميقة، كان يكتشف أن حالة الحب ليست ثابتة، بل هي عبارة عن دفقات أو أمواج متجددة، وكان يعيش واحدة من الدفقات الآن، كان عازف التشيلّو، المتضايق بوضوح من صديق فلورنس الجديد، شابًّا مشوّشًا يعاني من التأتأة وعيبًا واضحًا في بشرة وجهه، وتمكّن إدوارد من الإحساس بالشفقة عليه ومسامحته بطيب نفس على تعلّقه الذليل بفلورنس، لأنه هو أيضًا لم يستطع الإشاحة ببصره عنها، بدت في حالة من الاكتفاء الذي يشبه النشوة وهي تستقر للعزف مع رفاقها: وضعت طَوق شعرها، بينما غاب إدوارد في أحلام اليقظة وهو ينتظر بدء الجلسة، ليس عن ممارسة الجنس مع فلورنس وحسب، بل عن الزواج بها، وإنشاء أسرة، وعن الابنة التي قد يحظيان بها، وبالطبع فقد كان التفكير في هذه الأمور دلالة

على نضجه، ربما الأمر كله عبارة عن صيغة مختلفة ومحترمة لحُلمه القديم بأن تُحبّه أكثر من فتاة، سوف تمتلك جمال أمها وجِديّتها، وتعزف على آلة موسيقية – الكمان غالبًا ، لكنه لا يستبعد تمامًا أن تعزف على غيتار كهربائي.

بعد الظهيرة تلك بالذات حضرت سونيا، صديقة فلورنس من الكواليس، لتعزف معهم خماسية موزارت، في النهاية كانوا مستعدين للبدء، أطبق صمت متوتر قصير للغاية بدا كأن موزارت نفسه كان قد سجله، حالما شرعوا بالعزف، صُعق إدوارد بارتفاع الصوت النقي، قوة الموسيقا والتداخل المخملي للآلات، كان يستمتع بالموسيقا لدقائق كاملة في كل مرة – حتى فقد متابعة النسق وشعر بالملل بطريقة مألوفة بسبب الانفعال المتزمت وتشابه كل شيء، ثم دعت فلورنس إلى وقفة وأعطت بعض الملاحظات بهدوء، جرت مناقشة عامة بين الأعضاء وعادوا ليبدؤوا من جديد.

تكرّرت هذه التفاصيل عدّة مرات، وكشف التكرار لإدوارد عن عذوبةٍ ملحوظةٍ للنغمات والعديد من التشابكات العابرة بين العازفين، وانقضاضات وقفزاتٍ جريئة أخذ ينتظرها في الجولة القادمة من العزف، لاحقًا عندما كانا في القطار عائدين إلى المنزل، استطاع إخبارها بصدق تام أنَّ الموسيقا قد أشجته فعلًا، حتى إنه دندن لها بعض المقاطع من المعزوفة، تأثرت فلورنس بشدّة، وقطعت وعدًا آخر – مجددًا، تلك الرزانة المثيرة التي بدت كما لو أنها تضاعف حجم عينيها، حين يأتي اليوم الذي يستطيع رباعي إنيسمور فيه العزف في قاعة وِيغمور للمرة الأولى، سوف يعزفون الخماسية، وستكون مكرّسة له.

في المقابل، جلب إلى أكسفورد من المنزل الريفي مجموعة من الأسطوانات التي أراد منها تعلم حبها، جلست ساكنة واستمعت بصبر، بعينين مغلقتين وتركيز أكثر من اللازم إلى أسطوانة تشاك بيري. اعتقد أنها قد تكره أغنية رول أوفر بيتهوفن لكنها وجدتها مضحكة للغاية، حاولت أن تقول شيئًا ينمّ عن التقدير حول كلّ أغنية، لكنها استعملت كلمات مثل "تبعث على الحماس" أو "بهيجة" أو "صادرة من القلب" وعلم أنها تتصرف بلطف وحسب، حين طرح فكرة أنها لم "تفهم" حقًا موسيقا الروك آند رول ولم يكن هناك سبب لاستمرارها في المحاولة، اعترفت أنَّ ما لم تستطع تحمله هو العزف على الطبول، حين تكون الألحان بدائية لهذه الدرجة، غالبيتها بتوقيت أربعة - أربعة، فما الداعي إلى كلّ هذا النقر والصدم والضوضاء للمحافظة على التوقيت؟ ما هو الهدف برغم وجود عازف غيتار إيقاعي في الفرقة وعازف بيانو في الغالب؟ لو كان الموسيقيون بحاجة إلى سماع الإيقاع فلِمَ لا يأتون ببندول إيقاع؟ ماذا لو أحضر رباعي إنيسمور عازف طبول؟ قبّلها وأخبرها أنها أكثر شخص تقليدي في الحضارة الغربية بأكملها، "لكنك تحبني" قالت.

"لذلك أحبك".

في بدايات شهر أغسطس، حين مرض جارهم في تيرفل هيث، عُرض على إدوارد الحلول مكانه في عمل جزئي مؤقت كبُستانِيّ في نادي تيرفل للكريكيت، كان عليه العمل اثنتي عشرة ساعة في كل أسبوع، في الأوقات التي يختارها هو، أحبَّ مغادرة المنزل الريفي في الصباح الباكر، قبل أن يستيقظ والده حتى، وأن يتمشى في ضجة تغريد العصافير هابطًا من جادة شجرة الليمون الحامض حتى أرض النادي

كما لو أنه يمتلك المكان، خلال أسبوعه الأول عمل على تجهيز الملعب لكأس الديربي المحلي، اللعبة الهامة ضد فريق ستونور، جزَّ العشب، سحب المدحلة، وساعد النجار الذي أتى من هامبلدن لبناء وطلاء لوحة جديدة لعرض النتائج، في الأوقات التي لم يكن يعمل فيها ولم يكونوا بحاجته في المنزل، كان ينطلق فورًا إلى أكسفورد، ليس فقط لأنه يشتاق إلى فلورنس، بل لأنه كذلك أراد تأخير زيارتها الحتمية للقاء عائلته، لم يعلم ماذا ستظن هي ووالدته واحدتهما بالأخرى، أو ماذا ستكون ردّة فعل فلورنس تجاه القذارة والفوضى في البيت الريفي، اعتقد بأنه يحتاج وقتًا لإعدادهما للقاء، لكن كما اتضح لاحقًا، لم يكن ذلك ضروريًا، فيما كان يعبر الأرض في ما بعد ظهيرة يوم جمعة حارّ، وجد فلورنس تنتظره في ظل الشادر، كانت تعرف ساعات عمله، واستقلّت قطارًا مبكرًا، ثم مشت من هنلي نحو وادي ستونور مستعينة بخريطة تمثل كل ميل بإنش واحد في يدها وبرتقالتين في حقيبة قماشية، أخبرته حين تبادلا القبل أنها كانت تراقبه نصف ساعة، وهو يعلّم الحدود القصوى للملعب، وتحبّه عن بعد، كانت تلك واحدة من اللحظات الفاتنة في أوّل أيّام حبّهما، حين سارا ببطء متشابكي الذراعين، عائدين إلى الجادة المتألقة وهما يمشيان في وسط الشارع كأنهما يمتلكانه بأكمله، الآن إذ لم يعد هناك مناص، أصبح مفهوم لقائها والدته ورؤيتها المنزل الريفي غير ذي أهمية، كانت الظلال التي تلقيها أشجار الليمون الحامض كثيفة للغاية بحيث إنها بدت بلون أسود مزرق في الضوء الساطع، والمرج يعجّ بالأعشاب الفتية والأزهار البرية، استعرض أمامها معرفته بالأسماء الريفية لهذه الأزهار، حتى إنه عثر بالصدفة على أجمة من زهرة الجنطيانا التي تنبت في منطقة

شيلترن، قطفا منها زهرة واحدة، ثم شاهدا كذلك عصفور الدرسة ثم حسونًا خضيريًا، ومرّ أمامهما طائر الباشق مسرعًا بزاوية ضيقة حول شجرة برقوق، لم تكن تعرف حتى أسماء طيور شائعة مثل هذه، لكنها أخبرته بإصرارها على التعلم، غمرها الابتهاج بسبب جمال الطريق الذي اختارته، تاركة وادي ستونور خلفها لتذهب عبر طريق زراعي ضيق إلى محميّة بيكس بوتوم الموحشة، عابرة كنيسة القديس جيمس المدمرة والمغطاة بعرائش اللبلاب، صاعدةً المنحدرات المشجّرة إلى قرية مايدنزغروف حيث اكتشفت مساحة شاسعة تغطيها الأزهار البرية، ثم عبر غابات زان بيشل بانك، حيث تقبع كنيسة صغيرة مبنية من القرميد والصوان وتمتدّ باحتها بكل جمال على جانب التلة، فيما كانت تصف كلّ هذه الأماكن – كان يعرفها جميعها بدقة – أخذ يتخيلها هناك، وحدها، تسير نحوه ساعات، تتوقف فقط لتنظر عابسة إلى خريطتها، كل ذلك من أجله، يا لها من هدية! ولم يسبق له أن رآها بهذه السعادة من قبل، أو هذا الجمال.

كانت تعقد شعرها إلى الخلف بقصاصة من المخمل الأسود، وترتدي بنطالًا من الجينز الأسود، خفافة رياضية وقميصًا أبيض طرزت على فتحات أزراره أزهار هندباء أنيقة، بينما سارا نحو المنزل الريفي، استمرت بجذب ذراعه الملوثة بالعشب طالبة قبلة أخرى، من أخفّ أنواع القبل، ولأول مرة كان سعيدًا أو على الأقلّ هادئًا حيال فكرة أنهما لن يفعلا أكثر من ذلك، بعد أن قشّرت الجزء المتبقي من برتقالتها لهما ليتشاركاها على الطريق، صارت يدها دبقة في يده، كانا يشعران بالإثارة البريئة حيال مفاجأتها الذكية، وبدت حياتهما مضحكة وحرّة، وعطلة نهاية الأسبوع بأسرها أمامهما.

***

عذّبته الآن ذكرى تلك النزهة من ملعب الكريكت إلى المنزل الصيفي بعد مرور سنة كاملة عليها، في ليلة زفافه، بينما نهض من السرير في العتمة شبه المطبقة، كان يشعر بثقل مشاعر معاكسة تمامًا، واحتاج التمسك بأفضل الذكريات، ألطف أفكاره حولها وإلا فإنه سوف ينطوي، سوف يستسلم ببساطة، شعر بثقلٍ سائلٍ في رجليه بينما عبر الغرفة ليستعيد سرواله الداخلي عن الأرض، ارتداه ثم التقط بنطاله ووقف هناك لوقت طويل والبنطال يتدلى من يده بينما كان يحدق من النافذة ويراقب الأشجار التي قلصتها الريح وقد أصبحت كتلة واحدة من الأخضر الرمادي.

عاليًا كان يبدو الهلال الدخاني، لا يلقي عمليًا بأيّ ضوء، كان صوت الأمواج التي تنهار على الشاطئ بفواصل ثابتة يخترق أفكاره، كأنها قد شُغّلت للتو، وملأته بالإرهاق ; قوانين وعمليات العالم المادي القاسية، للقمر والمدّ، والتي لم يسبق له الاهتمام بها، لم تكن متأثرة على الإطلاق بحالته، كانت هذه الحقيقة شديدة الوضوح أقسى من المحتمل، كيف يمكنه الاستمرار، وحيدًا ومن دون دعم؟ وكيف يستطيع النزول ومواجهتها على الشاطئ حيث يعتقد أنها موجودة؟ كان بنطاله يبدو ثقيلًا وسخيفًا في يده، هذان الأنبوبان المتوازيان المتصلان من جهة واحدة، موضة اعتباطية للقرون الحديثة، وبدا له أن ارتداءه سوف يعيده إلى الحياة الاجتماعية، إلى التزاماته والحجم الحقيقي لعاره، حالما يرتديه فسيتعين عليه الذهاب للعثور عليها، ولهذا أخذ يؤجل الأمر.

كالكثير من الذكريات الزاهية، كان تذكره للنزهة نحو تيرفل هيث مع فلورنس محاطًا بهالة من النسيان، لا بد أنهما حين وصلا إلى المنزل الريفي وجدا والدته وحيدة – والده والفتيات كانوا بالتأكيد لا يزالون في المدرسة- عادة ما ترتبك مارجوري مايهيو عندما ترى وجهًا غريبًا، لكن إدوارد لم يُبق في ذاكرته على أيّ انطباع يتعلّق بتقديم فلورنس إلى والدته، أو عن الطريقة التي تجاوبت بها مع الغرف المكتظة والقذرة، ونتن المجارير الذي يكون في أسوأ أحواله صيفًا، آتيًا من ناحية المطبخ، كان يمتلك القليل من الذكريات وحسب عن بعد الظهيرة ذاك، مشاهد معينة مثل بطاقات البريد القديمة، أحد المشاهد كان عبر النافذة الملطخة والمشبّكة لغرفة الجلوس والتي تطلّ على أسفل الحديقة، حيث جلست فلورنس ووالدته على المقعد وبيد كل منهما مقص وعدة نُسخ من مجلة لايف، تتحادثان بينما تقصّان بعض الصفحات، حين أتت الفتاتان من المدرسة، لا بد أنهما اصطحبتا فلورنس لرؤية حمار الجيران المولود حديثًا، لأنه يتذكر مشهدًا آخر يعُدنَ فيه متأبطات أذرع بعضهن عبر المرج، أما المشهد الثالث فتظهر فيه فلورنس وهي تحمل صينية شاي عبر الحديقة لتقدمه إلى والده، نعم، لا يمكن له الشكّ بذلك، فلورنس شخص طيب، بل هي الأفضل، في ذلك الصيف أحبها آل مايهيو جميعًا، وفي مرة حضرت التوأم إلى أكسفورد وقضتا النهار مع فلورنس وأختها قرب النهر، كانت مارجوري تطلبها دائمًا على الرغم من أنها لم تستطع أبدًا تذكّر اسمها، ونصح ليونيل مايهيو، المحبّ للدنيويات، ابنه بأن يتزوج "تلك الفتاة" قبل أن تضيع من بين يديه، استحضر إدوارد هذه الذكريات من العام الماضي، مشاهد المنزل الريفي،

النزهة تحت أشجار الليمون الحامض، الصيف في أكسفورد، ليس من باب الرغبة العاطفية لاستحضار أساه أو الانغماس فيه، بل لطرده والتمعن في شعور الحب، ولردع مقدمات عنصرٍ لم يكن يأبه للاعتراف به أصلًا، بدايات قتامة المزاج، محاسبة مظلمة، أثرٌ بسيطٌ من السم الذي أخذ يتفرع في وجوده حتى في هذه اللحظة، الغضب، الشيطان الذي حافظ عليه هاجعًا في السابق حينما اعتقد أن صبره كان على وشك النفاد، كم هو مغرٍ أن يستسلم له، الآن وقد أصبح وحيدًا وبمقدوره ترك كل شيء يحترق، بعد هذا الإذلال كان احترامه لذاته يتطلب انفجارا كهذا، ما الضرر الذي يمكن أن يأتي به محض فكرة؟ من الأفضل إتمام الأمر الآن، بينما يقف هناك، نصف عارٍ وسط أطلال ليلة زفافه، لقد قاده إلى استسلامه هذا وضوح الأفكار الذي يحدث عقب التلاشي المفاجئ للرغبة، بعد أن تخلصت أفكاره من الرقة والضبابية الناتجين عن التوق، أصبح قادرًا على تسجيل الإهانة بموضوعية شرعية، ويا لها من إهانة، يا له من إذلال ذاك الذي عرّضته له بصرختها المتقززة والهرج التي صنعته بالوسادة، يا لها من طريقة لزيادة الطين بلّة، أن تفر من الغرفة دون أن تنبس بكلمة، تاركة إياه مع وصمة العار المقززة وكل عبء الفشل، لقد فعلت كل ما في وسعها لجعل الحال أسوأ وغير قابل للإصلاح، كان شديد الازدراء لها وهكذا أرادت معاقبته، تركته وحيدًا ليتأمل بكفاءته دون أن تقدّم هي أيّ أفكار، بالتأكيد كان السبب هو حركة يدها، أصابعها، هي التي أوصلته إلى هذه النهاية، عند تذكره للمستها، ذلك الإحساس العذب، بدأت الإثارة الحادة المنعشة بإلهائه وإغوائه عن تلك الأفكار المتصلبة، مغرية إياه للبدء بمسامحتها، لكنه قاوم، لقد وجد موضوعه وأخذ

يتعمق فيه، شعر بأن هنالك مسألة أهمّ في انتظاره، وفهمها أخيرًا، شقّ طريقه فيها كما لو كان عامل منجم يخترق جوانب نفق أعرض، طريقًا كئيبًا واسعًا كفاية لغضبه المتجمع.

توضّح الأمر له الآن، وشعر بأنه مغفل لعدم إدراكه من قبل، لسنة كاملة عانى من التعذيب السلبي، رغب بها حتى آلمه الأمر، ورغب بأشياء صغيرة أيضًا، أشياء بريئة مثيرة للشفقة مثل قبلة حقيقية كاملة، مثل أن تلمسه وتدعه يلمسها، كان وعد الزواج هو راحته الوحيدة ومن بعده المباهج التي حرمتهما منها، حتى وإن لم يكن بمقدورهما ممارسة الحب إلا بعد الزواج، لم يكن هنالك داعٍ لكل هذه الالتواءات، كل عذابات ضبط النفس.

كان صبورًا ولم يتذمر – أحمق مهذّبًا، أيّ رجل في مكانه كان سيطلب المزيد وإلّا سيتركها ويرحل، إن كان قد عجز عن الاحتمال بعد سنة كاملة من الجهد لضبط نفسه ثم فشل في اللحظة الحرجة، فإنه يرفض حمل اللوم.

هذا ما انتهى إليه، إنه يرفض الإهانة ولا يقرّ بها، كان عملًا فظيعًا منها أن تصرخ بخيبة الأمل، أن تندفع من الغرفة بهذا الشكل بينما يقع اللوم عليها هي، كان عليه تقبّل واقع كراهيتها للتقبيل واللمس، لم تحب تقارب جسديهما، ولم يكن لديها أدنى اهتمام به، فلورنس إنسانة غير حسية، دون رغبة على الإطلاق، غير قادرة على الشعور بما يحسّ به. سار إدوارد عبر خطوات التحليل التالية بسهولة قاتلة: كانت تعرف كل ذلك – كيف لها ألّا تعرف؟ – وخدعته، أرادت زوجًا من أجل الحصول على الاحترام، أو لإرضاء والديها، أو لأن الزواج هو ما يفعله الجميع، أو ربما لأنها اعتقدته لُعبة مدهشة، لم

تشعر تجاهه بالحب، لم تكن قادرة على الإحساس بالحبّ الذي يشعر به الرجال والنساء، عرفت ذلك وأخفته عنه، لم تكن صادقة. لكن ليس من السهل متابعة حقائق صعبة كهذه بقدمين حافيتين وسروال داخلي، جذب بنطاله وتلمّس باحثًا عن جواربه وحذائه، مفكرًا مليًا بالأمر من جديد، منعمًا الحواف الخشنة للنقلات الصعبة، موصلًا الطرقات التي انبثقت متفلتة من شكوكه الخاصة، وهكذا أصبحت قضيته مثالية، ومع اكتمالها شعر بغضبه يثور من جديد، كل شيء يتهاوى، ومن الاعتباطي عدم التحدث عنه، جميع التفاصيل الآن على وشك أن تتضح، لا بدّ لها من معرفة ما يفكر به وما يشعره – احتاج أن يخبرها ويريها.

اختطف سترته عن الكرسي وأسرع خارجًا من الغرفة.

الفصل الخامس

راقبته وهو يقترب على طول الشاطئ، لا يعدو شكله في البداية بقعة نيلية على الحصباء التي يدكن لونها، بقعة تبدو ساكنة في بعض الأحيان، مومضة أو بحدود متلاشية، وفي أحيان أخرى قريبة فجأة كما لو كانت بيدق شطرنج تحرك عدة نقلات نحوها، امتدّ آخر رمق من ضوء النهار على طول الشّاطئ، وخلفها بعيدًا نحو الشرق تناثرت نقاط من الضوء على الإسمنت، وعكست نهايات الغيم شعاعًا أصفر باهتًا صادرًا عن عواميد إنارة الشوارع في بلدة بعيدة.

راقبته وهي تتمنى أن يبطئ أكثر لأنها كانت خائفة منه وتشعر بالذنب، وكانت ترغب بشدة في البقاء وحدها وقتًا أطول، مهما كان نوع المحادثة التي ستدور بينهما الآن فهي تخشاها، لم يكن هنالك حسب فهمها كلمات مناسبة لتسمية ما حدث، لم تكن هنالك لغة مشتركة يمكن لبالغين عاقلين استعمالها لوصف الأحداث لبعضهما، أما الجدال حول الأمر فكان يفوق مخيلتها، لا يمكن لهما النقاش الآن.

لم ترغب بالتفكير في الأمر، وأملت أنه يريد الشيء ذاته، ما الذي قد يتحدثان عنه إذًا؟ ما الذي يفعلانه في الخارج؟ وانتصبت الحادثة أمامهما كما لو كانت معلمًا جغرافيًا، جبلًا أو رأسًا بحريًا، لا يمكن تسميته أو تجنبه، وكانت تشعر بالخجل، تردد صدى تبعات تصرفها عبر جسدها، حتى بدا كأنها تسمعه في أذنيها، لهذا ركضت كل هذه المسافة على طول الشاطئ، فوق الحصى الثقيلة بحذاء الخروج، لتفرّ من الغرفة ومن ما حدث فيها، وتفرّ من نفسها، لقد تصرّفت بشكل سيِّئ، تركت الكلمة الاجتماعية الخرقاء "سيِّئ" تتردد في أفكارها مرات عديدة، كانت الكلمة في النهاية مصطلحًا متسامحًا

– لعبت التنس بشكل سيِّئ، تعزف أختها على البيانو بشكل سيِّئ – وعلمت فلورنس أنها قناع لتصرفها وليست وصفًا حقيقيًا له.

في الوقت نفسه كانت مدركة لخزيه – حين علا فوقها، تلك النظرة المنقبضة المرتبكة، الاهتزاز الزاحف على طول عموده الفقري، لكنها حاولت عدم التفكير بالأمر، هل تجرؤ على التفكير بأنها شعرت ببعض الراحة لأن الخطب لم يكن بها وحدها، وأنه كان يعاني هو أيضًا من اضطراب ما؟ كم سيكون فظيعًا ومريحًا في الوقت نفسه لو أنه كان يعاني من نوع المرض الخَلقي ذاته الذي تعاني منه هي، لعنة عائلية، نوع من الأمراض الذي يلازمه الصمت والعار تمامًا مثل التبول في الفراش أو السرطان، كلمة تتشاءم من نطقها بصوت مرتفع لئلا تصيب فمها بالعدوى – سخافة لن تعترف بها، ثم ربما يشعران بالأسى على بعضهما، يربطهما الحب بابتلاءيهما المنفصلين.

حزنت عليه، لكنها شعرت كذلك بأنها خُدعت قليلًا، إن كانت لديه حالة غير اعتيادية، فلماذا لم يخبرها سرًا؟ لكنها فهمت سبب تكتمه لأنها هي أيضًا لم تكن صريحة معه.

كيف له البدء بحديث عن تشوهه الخاص، ما الكلمات التي يمكن أن يبتدئ بها؟ لم تكن موجودة، لم يخترع أحد حتى الآن لغة كهذه.

بينما كانت تتأمل في تفاصيل هذه الفكرة، علمت تمامًا أنه لا يعاني من أيّ خطب، لا مشاكل على الإطلاق، بل هي التي تعاني منها، فقط هي، كانت تتكئ على شجرة ضخمة ساقطة على الأرض، قد رمتها العاصفة غالبًا على الشاطئ، وقد عرّت قوة الأمواج جذعها من اللحاء ونعّمت مياه البحر المالحة خشبها وجعلته قاسيًا، حشرت

جسدها بشكل مريح في زاوية صنعها أحد الأغصان وهي تشعر عبر تقوّس أسفل ظهرها الملاصق لمحيط الجذع ببقايا دفء النهار، وهكذا يمكن لطفل أن يكون، معششًا في حنايا ذراع أمه، مع أن فلورنس لا يمكن أن تعشش بهذا الشكل في حضن فيوليت التي كانت ذراعاها نحيلة ومتوترة لطول الكتابة والتفكير، وتذكرت فلورنس عندما كانت في الخامسة إحدى المربيات من نورلاند التي كانت ريانة وحنونة، ولها صوت اسكتلندي موسيقي وبراجم بارزة ومحمرة، لكنها تركت العمل بعد عار مجهول.

تابعت فلورنس مراقبة تقدُّم إدوارد على الشاطئ، متأكدة أنه لم يتمكن من رؤيتها حتى الآن، كان بمقدورها الهبوط نحو الضفة المنحدرة ومتابعة المسير عائدة على طول شاطئ الجدول، لكن مع أنها تخافه فقد اعتقدت أن الفرار منه سيكون أمرًا بالغ القسوة، بعد وقت قصير رأت حدود كتفيه وخلفها شريط فضي من الماء، تيار متفرع بعيدًا نحو البحر وراءه.

صار بمقدورها الآن سماع وقع أقدامه على الحصباء، ما يعني أنه سيكون قادرًا على سماع خطواتها، لقد علم بمكانها لأنهما وضعا خطة لبعد العشاء، نزهة إلى لسان الحصى الساحلي الشهير مع زجاجة من النبيذ، كانا سيجمعان الحصى على طول الطريق ثم يقارنان أحجامها ليتأكدا إن كانت العواصف قد رتبتها حسب أحجامها على الشاطئ بالفعل.

لم تشعرها ذكرى هذه البهجة الضائعة بالحزن فعلًا، لأن فكرة أخرى حلّت مكانها على الفور، فكرة تعرضت للمقاطعة في بداية الأمسية، أن يحب أحدهما الآخر ويدعه طليقًا، كانت مناقشة يمكن

لها الخوض فيها، عرض جريء في اعتقادها، لكن بالنسبة لأيّ شخص آخر، بالنسبة لإدوارد، فإنه سيبدو مضحكًا وغبيًا، مهينًا حتى، ليس بإمكانها معرفة المقدار الحقيقي لجهلها لأنها اعتقدت أنها كانت حكيمة جدًا في بعض الأمور.

احتاجت مزيدًا من الوقت، لكنه سيصل إليها خلال ثوانٍ معدودة ولا بدّ من بدء المحادثة الفظيعة، كان جهلها في التصرّف الذي يجب أن تسلكه معه واحدًا من إخفاقاتها، لا مشاعر تعدو تخوفها مما قد يقوله، ومما قد يتوقعها هي أن تقوله بالمقابل، لم تعرف إن كان عليها طلب غفرانه أو توقع اعتذاره، لم تكن عاشقة أو غير عاشقة – لم تشعر بشيء. جلّ ما أرادته كان البقاء وحيدة هنا في الغسق على جذع شجرتها الضخمة.

كان في يده ما يشبه الرزمة، توقف بعيدًا عنها بما يعادل مساحة غرفة كاملة، وبدا هذا التصرف بحد ذاته غير ودّي، ما جعلها تشعر بالعدائية في المقابل، لماذا أتى يلاحقها بهذه السرعة؟ بالفعل كان هنالك نبرة غضب في صوته، "ها أنتِ"، لم تستطع حمل نفسها على إجابة تعليق فارغ كهذا.

"هل كان عليك حقًا الابتعاد إلى هذه الدرجة؟".

"نعم".

"لا بد أن المسافة من الفندق إلى هنا تبلغ الميلين".

فاجأت نفسها بقسوة صوتها.

"لا أهتمّ بمقدار البعد، كان عليَّ الخروج".

لم يُجِب، طقطقت الحصى حين نقل ثقل جسمه من قدم إلى أخرى، ورأت الآن أن ما كان يحمله في يده هو سترته، كان الجو

دافئًا ورطبًا على الشاطئ، أدفأ مما كان عليه خلال النهار، وأزعجها اعتقاده بضرورة إحضار سترته معه، على الأقلّ هو لم يضع ربطة عنقه! يا إلهي، كم شعرت بالانزعاج فجأة، بينما كانت منذ دقائق قليلة خجلة من نفسها، لطالما حرصت على معرفة رأيه القيّم، لكنها الآن لم تعد تهتمّ.

كان يستعد ليخبرها بما جاء لقوله، واقترب خطوة منها، "انظري، هذا سخيف، كان من الظلم أن تفرّي بهذا الشكل".

"هل كان كذلك؟"

"في الواقع، لقد كان أمرًا مزعجًا بشكل حقير".

"حقًا؟ حسنًا، لقد كان ما فعلته أنت أمرًا مزعجًا بشكل حقير".

"ما الذي تعنينه؟"

أغلقت عينيها وهي تقول: "تعلم بالتحديد ما الذي أعنيه"، كانت تعذّب نفسها لاحقًا كلّما تذكرت أقوالها في هذا الحوار، لكنها الآن تابعت قائلة، "لقد كان تصرفًا مقززًا تمامًا".

تخيلت أنها سمعته ينخر، كما لو أنه تلقى لكمة في صدره، لو كان الصمت الذي تبع هذه الكلمات طال لعدة ثوانٍ أكثر لربما وجد شعورها بالذنب الوقت الكافي للتمرد عليها، ولكانت أضافت أقوالًا أقل فظاظة.

لكن ادوارد اندفع متأرجحًا، "أنتِ لا تمتلكين أدنى فكرة عن التعامل مع رجل، لو كنت تعرفين لما حدث هذا الأمر، أنتِ لم تسمحي لي بالاقتراب منك، أنتِ لا تعرفين شيئًا عن الأمر برمته، أليس كذلك؟ أنتِ تتصرفين كما لو كنا في عام 1862، أنتِ لا تعرفين حتى كيفية التقبيل".

سمعت نفسها تقول بسلاسة، "أعرف الفشل حين أراه"، لكنها لم تعن هذه الكلمات، هذه القسوة لم تكن صادرة عنها على الإطلاق بل كانت ببساطة إجابة الكمان الثاني للأول، تجنبًا بلاغيًا حرّضت عليه المفاجأة، ودقّة هجومه والسخرية التي سمعتها في تكراره للضمير "أنتِ"، ما قدر الاتهامات التي يتعين عليها تحمله في خطاب واحد قصير؟

لم يُبدِ أيّ دلالة على أنها أهانته على الرغم من أنها كانت بالكاد قادرة على رؤية وجهه، ربما واتتها كل هذه الشجاعة بسبب الظلمة، حين تكلم من جديد لم يرفع صوته حتى:

"لن أقبل إذلالك لي".

"ولن أقبل تنمّرك عليّ".

"أنا لا أتنمر عليكِ!"

"بلى تتنمر، دائمًا ما تفعل ذلك".

"هذا سخيف، ما الذي تتحدثين عنه؟"

لم تكن واثقة لكنها علمت أن هذا هو الطريق الذي ستسير فيه، "أنت دائمًا تدفعني، تستمرّ في دفعي، تطلب المزيد مني، لا نستطيع أبدًا أن نكون، لا نستطيع أن نكون سعداء وحسب، هناك دائمًا هذا الضغط المستمر. دائمًا ما يكون هنالك المزيد لتطلبه مني، هذا التملق اللانهائي".

"تملق؟ أنا لا أفهم، أرجو أنك لا تتحدثين عن النقود".

لم تكن تتحدث عن النقود، بل كان هذا الموضوع بعيدًا تمامًا عن تفكيرها، كم كان أخرق ذكر النقود الآن، كيف يجرؤ؟ هكذا قالت، "حسنًا، بما أنك قد ذكرت الموضوع فمن الواضح أنه

يدور في ذهنك"، لقد دفعتها سخريته أو وقاحته، كان ما ترمي إليه أكثر جوهرية من النقود، لكنها لم تعرف كيف تتحدث عنه، لقد كان لسانه وهو يشقّ طريقه أعمق داخل فمها، يده التي تغوص أكثر تحت تنورتها أو بلوزتها، أو تجذب يدها نحو قضيبه، الطريقة التي يشيح بنظره بها بعيدًا ثم يبقى صامتًا، تلك التوقعات المطوّلة منها بمنح المزيد، وعندما لم تفعل، تحولت إلى خيبة أمل لأنها تبطئ كل شيء، مهما كانت الحدود الجديدة التي استطاعت تجاوزها فقد كان هناك دائمًا حدود أخرى بانتظارها.

كل تنازل قدمته جعل الطلبات تتزايد، ومن بعدها خيبة الأمل، حتى في أسعد لحظاتهما استمرّ شبح الاتهام، تعاسة الفقدان التي بالكاد يخفيها، تحوم كما لو كانت جبلًا شاهقًا بينهما، نوعًا من الحزن الأبدي الذي تقبله الاثنان على أنه موجود بسببها.

أرادت أن تحبّ وأن تكون ذاتها، لكن لكي تكون ذاتها كان عليها الرفض طوال الوقت، وعندها فلن تكون ذاتها، لقد نُفيت على حافة المرض كعدو للحياة الطبيعية.

أزعجها الأمر، كيف تبعها إلى الشاطئ بهذه السرعة، بينما كان يتعين عليه منحها وقتًا مع نفسها، ما يحدث الآن على شاطئ القناة الإنجليزية كان مجرد حدث بسيط داخل نمط أكبر، كانت قادرة على استشراف المستقبل، كانا سيخوضان هذا الخلاف ثم يتصالحان، أو يتصالحان جزئيًا، ثم سيقنعها بالعودة إلى الغرفة، حيث ستُلقى التوقعات على عاتقها من جديد، وستفشل من جديد، عجزت عن التنفس، لم يتجاوز عمر زواجها ساعات ثمانية، وقد ألقت كل ساعة بثقلها عليها، وازداد هذا الثقل لأنها لم تعرف كيف تَصِف هذه الأفكار

له، لذلك فعلى موضوع النقود أن يفي بالغرض الآن – في الواقع، لقد سار الأمر بشكل ممتاز لأنه الآن أصبح هائجًا، قال: "لم أكثرت يومًا بشأن النقود، نقودك أو نقود غيرك"، كانت تعلم صحة هذا الكلام، لكنها لم تقل شيئًا، غيّر وقفته الآن فأصبحت ترى حدود جسده بشكل واضح على صفحة بريق الماء المتلاشي خلفه، "لذلك احتفظي بنقودك، نقود والدك، أنفقيها على نفسك، اشتري كمانًا جديدًا، لا تهدريها على أيّ شيء يمكن لي استعماله".

كان صوته مشدودًا، لقد أهانته بعمق، أكثر حتى مما قد تعمدت، لكن في الوقت الحالي لم تكترث، وساعدها على ذلك عدم تمكنها من رؤية وجهه، لم يسبق لهما التحدث عن النقود، أهدى والدها لهما ألفي جنيه بمناسبة الزفاف وتحدثت هي وإدوارد بإبهام عن شراء منزل بهذه النقود يومًا ما.

ثم قال، "أتعتقدين أني تملّقتك للحصول على تلك الوظيفة؟ لقد كانت فكرتك وأنا لا أريدها، هل تفهمين؟ لا أريد العمل عند والدك، تستطيعين إخباره أني قد غيرت رأيي".

"أخبره بنفسك. سيكون سعيدًا للغاية، لقد أقحم نفسه في كمٍّ كبير من المتاعب من أجلك".

"حسنًا إذًا، سوف أفعل"، استدار ومشى مبتعدًا عنها، نحو حافة الشاطئ، لكنه عاد بعد عدة خطوات، يركل الحصى بعنف وقح، مرسلًا رشقة من الحصباء الصغيرة ليستقر بعضها قرب قدميها، حرّض غضبه غضبها وفجأة اعتقدت بأنها تفهم مشكلتهما: كانا مهذبين أكثر من اللازم، مقيدين أكثر من اللازم، جبانين بإفراط، يتعاملان مع بعضهما على أطراف أصابعهما، يغمغمان، يهمسان،

يؤخران الأمور، يوافقان، بالكاد عرف واحدهما الآخر ولن يمكن لهما التقارب بسبب تلك البطانية من اللطف القريب، من الصمت الذي كان يخنق اختلافاتهما ويعميهما بالقدر نفسه الذي يجمعهما فيه، كانا خائفين من أن يختلفا في يوم من الأيام، والآن كان غضبه يعتقها.

أرادت إيذاءه، معاقبته لتجعل نفسها مختلفة عنه، شعرت باندفاع غير مألوف لديها، نحو إثارة التدمير، ولم تمتلك أيّ مقاومة تجاه هذا الاندفاع، خفق قلبها بشدة وأرادت إخباره أنها تكرهه، كانت على وشك نطق هذه الكلمات القاسية والرائعة التي لم يسبق لها قولها في حياتها لكنه تكلم أولًا، عاد إلى نقطة البدء مستدعيًا كل مهابته ليؤنبها.

"لماذا هربتِ؟ كان ذلك تصرفًا خاطئًا وجارحًا".

خطأ جارح، مثير للشفقة! وأجابت: "لقد سبق وأخبرتك، كان عليّ الخروج، لم أستطع الاحتمال، أن أكون معك هناك".

"لقد رغبتِ في إذلالي".

"حسنًا إذًا، إن كان هذا ما تريده، لقد كنت أحاول إذلالك، وهو أقلّ مما تستحق إن كنت عاجزًا عن السيطرة على نفسك".

"يا لك من ساقطة بقولك لهذه الكلمات".

كانت الكلمة تشبه انفجارًا نجميًا في السماء الليلية، والآن تستطيع قول كل ما تحب.

"إن كان هذا ما تعتقده، إذًا ابتعد عني، اختفِ من هنا، هلّا ذهبت، إدوارد انصرف أرجوك، هل تفهم؟ لقد أتيت إلى هنا لأختلي بنفسي".

علمت أنه يدرك تجاوزه للحدود بهذه الكلمة، والآن أصبح

عالقًا داخلها، بينما أدارت ظهرها له، كانت واعية للتظاهر الذي تقوم به، الانتهازية التي لطالما كرهتها في صديقاتها الأكثر تعبيرًا منها، كانت مجهدة من المحادثة.

حتى أفضل النتائج سوف تفضي بها إلى المزيد من المناورات الصامتة ذاتها، حين تشعر بالتعاسة كانت غالبًا ما تتساءل حول الأمر الذي تفضل عمله، وفي هذه اللحظة، كانت تعلم فورًا.

رأت نفسها على رصيف لندني في محطة سكة حديد أكسفورد، الساعة التاسعة صباحًا، في يدها صندوق كمانها، حزمة من الموسيقا ومجموعة من أقلام الرصاص المبرية بشكل جيد في حقيبة مدرسة قماشية قديمة على كتفها، متجهة إلى تمرين مع الرباعي، إلى لقاء مع الجمال والصعوبة، إلى مشاكل يمكن حلّها فعليًا بالعمل مع الأصدقاء، بينما هنا مع إدوارد، لم يكن هنالك حلّ تستطيع تصوره، إلا إذا قدمت عرضها، والآن أصبحت تشكّ إن كانت لديها الشجاعة الكافية، كم كانت مقيدة، كانت حياتها متشابكة مع هذا الغريب القادم من قرية على تلال شيلترن والذي يعرف أسماء الزهور البرية والمحاصيل وجميع ملوك وباباوات العصور الوسطى، وكم بدا لها مذهلًا الآن، اختيارها لهذه الحالة، هذا التشابك، لنفسها.

كانت لا تزال ملتفتة عنه بظهرها، شعرت به يقترب، تخيلته خلفها تمامًا، ذراعاه متدليتان برخاوة على جانبيه، تنقبضان وترتخيان بلطف بينما أخذ يفكر بإمكانية لمس كتفها، من عتمة التلال المطبقة، عبر جدول الماء، تناهى إلى السمع صوت أغنية عصفور وحيد، ملتفة وصفيرية، بسبب جمال الأغنية والوقت من اليوم كانت تخمن أن الطير هو العندليب.

لكن هل تعيش العنادل قرب البحر؟ هل تغني في يوليو؟ لا بد أن إدوارد يعرف، لكنها لم تكن في مزاج مناسب للسؤال، قال بطريقة عملية، "لقد أحببتك، لكنك تصعبين الأمور"، كانا صامتين بينما استقرت حولهما معاني الزمن الذي استعمله، قالت في النهاية، متعجبة: "أحببتني؟"

لم يصحح قوله، ربما لم يكن هو نفسه في النهاية واضع خطط سيِّئ، قال ببساطة، "بمقدورنا أن نكون حرّين للغاية معًا، أن نكون في الجنة، لكن عوضًا عن ذلك ها نحن هنا في هذه الفوضى"، جردتها الحقيقة الواضحة من أسلحتها، كذلك فعل التحويل إلى زمن يحمل المزيد من الأمل، لكن كلمة "فوضى" أعادت إليها مشهد غرفة النوم الكريه، المادة الفاترة على جلدها بينما تجفّ وتتحول إلى قشرة تتشقق، كانت واثقة أنها لن تسمح لشيء مشابه بالحدوث لها من جديد.

أجابت بطبيعية: "نعم".

"ما الذي تعنينه بالتحديد؟"

"إنها لفوضى".

كان هنالك صمت، نوع من الجمود لأجَل غير محدود، استمعا خلالها لصوت الأمواج، ولصوت الطائر المتقطع الذي طار أبعد، لكن نداءه الخافت أصبح أكثر وضوحًا، في النهاية وكما توقعت، وضع يده على كتفها، كانت اللمسة تنشر دفئًا لطيفًا على طول عمودها الفقري نحو تقوّس أسفل ظهرها، لم تعرف ما الذي عليها اعتقاده، كرهت نفسها لحساب اللحظة التي سيكون عليها فيها الاستدارة لمواجهته، ورأت نفسها كما قد يراها هو الآن، خرقاء وهشّة

تمامًا مثل والدتها، يصعب التعرف عليها، تخلق العقبات بينما كان يمكنهما بسهولة أن يكونا في الجنة، لذلك عليها تبسيط الأمور، كان واجبها، يوم زواجها.

بينما استدارات لمواجهته، ابتعدت بشكل واضح عن لمسته لأنها لم ترد أن يقبلها، ليس في الحال، احتاجت ذهنًا صافيًا لتخبره بخطتها، لكنهما كانا لا يزالان قريبين كفاية لتشاهد شيئًا من ملامحه في الضوء الضعيف، ربما في تلك اللحظة تخلّى القمر القابع خلفها جزئيًا عن قناعه من الغمام، ظنت أنه كان ينظر إليها كما فعل غالبًا – كانت نظرة تعجب – عندما يريد إخبارها أنها بدت جميلة، لم تصدّقه فعلًا، وأزعجها قوله لأنه قد يفضي إلى رغبته بشيء سوف تفشل في منحه إياه، ولأن هذه الفكرة جعلتها مشوشة فقد عجزت عن توضيح فكرتها.

وجدت نفسها تسأل: "هل هو عندليب؟"

"بل شحرور".

"في الليل؟" لم تستطع إخفاء خيبة أملها.

"لا بد أنه مكان مناسب للتحضير للتزاوج، على المسكين بذل مجهود كبير" ثم أضاف "مثلي تمامًا".

ضحكت مباشرة، كان الأمر وكأنها نسيته جزئيًا، طبيعته الحقيقية، والآن وقف أمامها بوضوح، الرجل الذي أحبته، صديقها القديم، الذي يقول أشياءً محببة وغير متوقعة، لكنها كانت ضحكة نابعة من عدم الارتياح، لأنها كانت تشعر ببعض الغضب، لم تكن تعرف مشاعرها، أطوار مزاجها حتى تكون قادرة على الغوص والانحراف بهذه الطريقة، والآن كانت على وشك تقديم اقتراح يبدو

من جهةٍ منطقيًا تمامًا، ومن جهة أخرى، على الأرجح - لم تكن واثقة كليًا - مشينًا بالمجمل، شعرت كأنها تحاول إعادة اختراع الوجود بحد ذاته ومن المحتّم عليها أن تخطئ.

اقترب نحوها من جديد مدفوعًا بضحكتها، محاولًا الإمساك بيدها، ومن جديد ابتعدت عنه، كان من الضروري أن تكون قادرة على التفكير بشكل سليم، بدأت خطابها كما تدربت عليه في أفكارها، بالتصريح الأهم: "أنت تعلم أني أحبك كثيرًا جدًا، وأعلم أنك تحبني كذلك، لم يسبق لي الشكّ بالأمر، أحب أن أكون معك، وأريد أن أقضي حياتي بقربك، تخبرني أن شعورك نحوي مماثل، وعلى كل شيء أن يكون بسيطًا للغاية، لكنه ليس كذلك، نحن غارقان في الفوضى كما قلت، حتى مع كل هذا الحب، أنا أعلم أيضًا أنني الملومة كليًا، وكلانا يعلم السبب، يجب أن يكون الأمر واضحًا الآن لك بجلاء. أن.... "

ترددت، حاول التكلم لكنها رفعت يدها، "إنني ميؤوس مني تمامًا، ميؤوس مني في ما يتعلق بالجنس، لست فاشلة فيه فحسب، بل يبدو أني لا أحتاجه مثل باقي الناس، مثلما تحتاجه أنت، ليس جزءًا مني، لا أحبه، لا أحب مفهومه. لا أعرف السبب، لكني أعتقد أنه لن يتغير، ليس فورًا، على الأقل أنا لا أستطيع تخيله يتغير، وإذا لم أقل هذه الأشياء الآن، سنستمر بالمعاناة، وسوف يسبب لك هذا الأمر الكثير من التعاسة، ولي أيضًا".

وقف على بعد ست أقدام منها، ليس أكثر من ظلٍ الآن، شديد السكون، شعرت بالخوف لكنها أجبرت نفسها على الاستمرار.

"ربما عليّ الخضوع لتحليل نفسي، ربما ما أحتاجه حقًا

هو قتل أمي والزواج من أبي"، النكتة الصغيرة الجريئة التي كانت قد فكرت بها سابقًا، لتلطيف رسالتها أو جعل نفسها تبدو أقل سذاجة لم تفلح في انتزاع أيّ ردّة فعل من إدوارد، بقي شكلًا مبهمًا ثنائي البعد مقابل البحر، ساكنًا تمامًا، ارتفعت يدها بحركة مترددة مرتعشة نحو جبهتها لتبعد خصلة شعر وهمية عنها، بدأت تتحدث بسرعة نابعة من توترها، لكن كلماتها كانت منطوقة بهشاشة.

تسارعت عباراتها لتنقذ نفسها من الغرق، مثل متزلج على جليد رقيق، مزقت طريقها عبر الجمل كما لو أنّ السرعة وحدها قادرة على توليد المنطق ودفعه هو أيضًا عبر التناقضات، تؤرجحه بسرعة كبيرة عبر منحنيات نيّاتها بحيث يتعذر عليه التمسك بأيّ اعتراض، ولأنها لم تربط كلماتها فقد بدت لسوء الحظ مفعمة بالنشاط بينما كانت في الواقع على حافة اليأس.

"لقد فكّرت بالأمر مليًا، وهو في الواقع ليس بالغباء الذي يبدو عليه، أعني عندما تسمعه للمرة الأولى، نحن نحب بعضنا - هذا أمر مفروغ منه، لا يشكّ أحدنا بذلك، صرنا نعرف كم يمكن لواحدنا إسعاد الآخر، نحن حرّان الآن في تقرير خياراتنا، حياتنا الخاصة. حقًّا، لا يستطيع أحد فرض طريقة حياةٍ علينا، عملاء أحرارا أصبح الناس يعيشون هذه الأيام بمختلف الطرق، يستطيعون العيش حسب قوانينهم ومعاييرهم من دون طلب الإذن من أحد، تعرف والدتي رجلين مثليّي الجنس يعيشان معًا في شقة مثل زوج وزوجة، رجلان في أكسفورد، في شارع بيمونت وهما متكتمان جدًا حول الموضوع، يدرّس كلاهما في كنيسة كرايست، ولا يزعجهما أحد، بإمكاننا نحن أيضًا وضع قوانينا الخاصة، وأنا أقول هذا الكلام لأنني أعلم أنك

تحبني، ما أعنيه، هو - إدوارد، أنا أحبك وليس علينا أن نكون مثل الآخرين، أنا أعني، لا أحد، لا أحد على الإطلاق، لا أحد سيعلم ما فعلناه وما لم نفعله، يمكننا أن نكون معًا، أن نعيش معًا، وإن أردت، أردت حقًا، لنقل، متى ما حدث الأمر، وبالتأكيد سوف يحدث، فإني سأتفهم، بل إنني سأريده، لأنني أريدك أن تكون سعيدًا وحرًا. لن أشعر بالغيرة طالما أعرف أنك تحبني، سأحبك وأعزف الموسيقا، وهذا كل ما أريد فعله في الحياة، صدقًا، أن أعتني بك وأكون سعيدة معك وأعمل مع الرباعي وأعزف في أحد الأيام شيئًا، شيئًا جميلًا لك، مثل مقطوعة موزارت في قاعة ويغمور".

توقفت بغتة لأنها لم تكن تعني التحدث عن طموحاتها الموسيقية، اعتقدت بأن الحديث عنها هو خطأ كبير، أصدر صوتًا من بين أسنانه يشبه الفحيح، وحين تكلم بدا صوته كالنباح، كان استياؤه عنيفًا إلى درجة أنه بدا كانتصار عسكري.

"يا إلهي! فلورنس، هل فهمتك بشكل صحيح؟ تريدين مني معاشرة نساء أخريات! هل هذا ما تعنين؟"

قالت بهدوء، "فقط إن رغبت بذلك".

"تقولين إني أستطيع فعل ذلك مع أيّ شخص يعجبني عداك أنت".

لم تجب.

"هل غاب عنك أننا قد تزوجنا اليوم؟ نحنا لسنا عجوزين غريبَي أطوار، يعيشان سرًا في شارع بيمونت، نحن زوج وزوجته" تفرقت الغيوم المنخفضة من جديد، ومع أنه لم يكن هناك نور مباشر من القمر، تحرك شعاع واهن منبعث من طبقات الجو العليا عبر

الشاطئ ليشمل الاثنين الواقفين قرب الشجرة الضخمة الساقطة.

في غضبه، انحنى والتقط حجرًا كبيرًا ناعمًا وضربه داخل راحته اليمنى ثم أعاده إلى اليسرى، كان قريبًا من الصراخ الآن، "أعبدك بجسدي! هذا ما وعدتِ به اليوم، أمام الجميع، ألا تدركين كم تبدو فكرتك مقززة وسخيفة؟ وكم هي مهينة، مهينة لي! أعني، أعني" - كان يكافح لإيجاد الكلمات - "كيف تجرؤين؟!"

خطا نحوها ويده مرفوعة بالحجر ثم استدار إلى حيث كان ورماها بكل إحباطه نحو البحر، قبل أن يستقر الحجر على حافة الماء كان قد استدار ليواجهها من جديد، "لقد خدعتني، في الواقع، أنت محتالة، وأعرف تمامًا ماذا تكونين أيضًا، أتعرفين ماذا؟ أنت باردة جنسيًّا، هذا هو حالك، باردة تمامًا، لكنك فكّرت أنك بحاجة إلى زوج، وأنا كنت الأحمق اللعين الأول الذي أتى في طريقك"، كانت تعرف أنها لم تخطط لخداعه، لكن كل شيء آخر، حالما بدأ في قوله، كان يبدو صحيحًا كليًا.

باردة جنسيًا، يا لها من عبارة فظيعة - فهمت كيف انطبق الوصف عليها، كانت تطابق ما تعنيه هذه الكلمة وكان عرضها مقرفًا - كيف لم تدرك من قبل؟ - ومهينًا بوضوح، والأسوأ أنها قد أخلفت بوعودها التي وعدتها على الملأ، في الكنيسة.

حالما أخبرها كان كل ما قاله يبدو منطقيًا.

وصارت بنظر نفسها كما بنظره، عديمة القيمة، لم يعد لديها شيء لتقوله وابتعدت عن حماية الشجرة التي رمتها الأمواج على الشاطئ، كان عليها تجاوزه لتنطلق نحو الفندق، وبينما مرّت قربه توقفت وقالت بصوت لا يكاد يجاوز الهمس، "أنا آسفة، إدوارد، أنا

آسفة جدًا"، توقفت لحظة وتمهلت هناك بانتظار ردّ منه، ثم مضت في طريقها.

***

وكانت كلماتها، تركيبتها المهجورة الخاصة، ستصير هاجسه لوقت طويل قادم، كان يستيقظ في الليل ليسمعها، أو يسمع شيئًا يشبه صداها ورنتها النادمة التواقة، وسوف يئنّ عندما يتذكر تلك اللحظة، صمته والطريقة التي ابتعد بها عنها غاضبًا وكيف بقي على الشاطئ لساعة أخرى، يتذوق على مهل كامل لذة جرحه والخطأ والإهانة اللذين عرضته لهما، ويعزّز كل ذلك بعاطفة صبيانية تجعله يظن أنه محقّ تمامًا وبشكل تراجيدي.

أخذ يروح ويغدو على الحصباء المرهِقة، راميًا بالحصى نحو البحر وصارخًا ببعض العبارات البذيئة، ثم ارتمى قرب الشجرة وضاع في حلم يقظة من الشفقة على الذات حتى استطاع إذكاء غضبه من جديد، وقف على حافة المياه وهو يفكّر بها، فسحبت الأمواج حذاءه خلال شروده، أخيرًا مشى عائدًا بتثاقل بطيء على طول الشاطئ، وتوقف مرارًا ليخاطب في ذهنه قاضيًا عادلًا وصارمًا كان يفهم قضيته بأسرها، شعر في غمرة سوء حظه أنه تقريبًا شخص نبيل.

في الوقت الذي وصل فيه إلى الفندق، كانت قد حزمت حقيبتها المعدة لليلة واحدة وغادرت، لم تترك أيّ رسالة في الغرفة، وعند مكتب الاستقبال تحدث إلى الشابّين اللذين قدما العشاء من العربة الصغيرة، على الرغم من أنهما لم يقولا شيئًا إلا أن الدهشة

بدت عليهما بوضوح، لأنه لم يعرف بحصول مرض عائلي استدعى عودة زوجته إلى المنزل على عجل، فتكرّم مساعد المدير بإيصالها إلى دورشستر حيث كانت تأمل اللحاق بآخر قطار ثم القيام برحلة متأخرة إلى أكسفورد، بينما استدار إدوارد ليصعد السلالم إلى جناح شهر العسل، لم يستطع رؤية الشابّين وهما يتبادلان النظرات ذات المعاني المبطنة، لكنه كان قادرًا على تخيلها تمامًا.

استلقى مستيقظًا باقي الليلة على السرير ذي الدعامات الأربع، بكامل ملابسه، وهو لا يزال حانقًا، كانت أفكاره تسابق بعضها في رقصة، في حلم يقظة يستمر بالعودة، أن تتزوجه ثم تحرمه، لقد كان تصرفًا وحشيًا، أرادت منه معاشرة نساء أخريات، ربما ترغب بالتفرج، لقد كان الأمر مذلًا، لا يصدق، لن يصدقه أحد، قالت بأنها تحبه، بالكاد رأى ثدييها، احتالت عليه ليتزوجها، لم تعرف حتى كيفية التقبيل، خدعته، تظاهرت أمامه، لا يمكن أن يعرف أحد، عليه الحفاظ على سره المخزي، أنها تزوجته ثم حرمته، لقد كان تصرفًا وحشيًا...

نهض قبيل الفجر متجاوزًا غرفة الجلوس، ووقف خلف كرسيه، كشط الصلصة المتخثرة عن اللحم والبطاطس في طبقه ثم أكلهما، أفرغ طبقها بعد ذلك، لم يكن يكترث بصاحب الطبق، ثم تناول كل النعناع والجبنة، غادر الفندق مع انبلاج الفجر، وقاد سيارة فيوليت بونتنغ الصغيرة عبر أميال من الطرقات الضيقة ذات الأسوار العالية، بينما تسربت رائحة الروث والعشب المجزوز حديثًا من النافذة المفتوحة، حتى وصل إلى الطريق الأساسي الفارغ المؤدي إلى أكسفورد.

ترك السيارة أمام منزل آل بونتنغ والمفاتيح معلقة على قفل ناقل الحركة، أسرع عبر البلدة دون اختلاس أيّ نظرة إلى نافذة فلورنس حاملًا حقيبته ليلحق بقطار مبكر، مشى الطريق الطويل من هنلي إلى تيرفل هيث وهو يشعر بدوار ناتج عن الإرهاق، حريصًا على تجنب الطريق الذي سلكته فلورنس قبل عام من الزمان.

ولماذا قد يسير على خطاها؟ حالما وصل المنزل رفض تبرير الأمر لوالده، كانت والدته قد نسيت أنه متزوج أصلًا، ضايقته التوأم مرارًا وتكرارًا بأسئلتهما وتكهناتهما الذكية.

حتى اقتادهما إلى نهاية الحديقة وجعل هاربيت وآن تقسمان بجدية، كل منهما على حِدة، واليد على القلب، أنهما لن تذكرا اسم فلورنس مجددًا.

بعدها بأسبوع، علم من والده أن السيدة بونتنغ رتبت بفعالية موضوع إعادة جميع هدايا الزفاف، بينما سار ليونيل وفيوليت بين بعضهما بعملية الطلاق على أساس عدم إتمام جماع الزواج.

كما كتب إدوارد إثر دفع والده له، رسالة رسمية إلى جيوفري بونتنغ رئيس مجلس إدارة بونتنغ للإلكترونيات، يأسف فيها على "تغيير موقفه"، ويعتذر، دون أيّ ذكر لفلورنس، ويقدم استقالته مع وداع مقتضب.

عندما تلاشى غضبه بعد عام أو نحوه، كان لا يزال أكثر إباءً من أن يبحث عنها أو يكتب لها، خشي أن تكون فلورنس مع شخص آخر، ولأنه لم يسمع أيّ أخبار عنها، أصبح أكثر اقتناعًا بفكرته.

عند اقتراب نهاية ذلك العقد الشهير، وعندما كانت حياته

تحت ضغط الكثير من الإثارات الجديدة والحريات والموضات، فضلا عن فوضى الكثير من علاقات الحب - أصبح في النهاية كفؤًا بما فيه الكفاية - صار يفكر مرارًا بعرضها الغريب، ولم يعد يبدو له سخيفًا إلى تلك الدرجة، وبالتأكيد غير مقرف أو مهين، في الظروف الجديدة المعاصرة أصبح عرضها يبدو متحررًا، وسابقًا لعصره، كريمًا بشكل بريء، تضحيةً بالذات فشل هو تماما في فهمها، يا رجل، يا له من عرض! هكذا كان رفاقه سيقولون، لكنه لم يحدّث أحدًا عن تلك الليلة، في ذلك الوقت، في نهاية الستينات، كان يعيش في لندن، من كان بمقدوره التنبؤ بتحولات كهذه - النهضة المفاجئة للمتع الحسية المجردة من أيّ شعور بالذنب، كمُّ النساء الجميلات اللواتي يمتلكن استعدادًا مجردًا من التعقيدات؟ تجوّل إدوارد عبر هذه السنوات القصيرة كطفل مشوش وسعيد تأجلت عقوبته المطولة، غير قادر حقًا على تصديق حسن حظه، كانت أفكار المنحة الجدية وسلسلة كتب التاريخ خلف ظهره، مع أنه لم يمتلك هدفًا محددًا عندما قرر قرارًا حاسمًا بشأن مستقبله.

سقط من ذاكرة التاريخ تمامًا مثل السير روبرت كاري المسكين ليعيش الحاضر براحة.

أصبح منخرطًا بالإشراف على العديد من مهرجانات موسيقا الروك، ساعد بافتتاح مقصف طعام صحي في هامبستيد، عمل في محل أسطوانات قريب من القناة في بلدة كامدان، كتب مراجعات عن موسيقا الروك لمجلات متواضعة، عاش في سلسلة من علاقات الحب الفوضوية والمتشابكة، سافر عبر فرنسا مع امرأة أصبحت زوجته لاحقًا لثلاث سنوات ونصف، وعاش في باريس، حتى أصبح في

النهاية شريكًا في محل الأسطوانات، كانت حياته أكثر انشغالًا من أن يهتم بمتابعة الصحف، كما أنه تصرّف لفترة وفقًا للقناعة التي تنصّ على ضرورة عدم وثوقنا بالإعلام المضبوط لأن الجميع على دراية بسيطرة الدولة عليه سواء كانت اهتماماتها عسكرية أو اقتصادية - وهو رأي تبرأ إدوارد منه لاحقًا، حتى لو كان قد قرأ الصحف في تلك الفترة فمن غير المرجح مروره بالصفحات الفنية، بالمراجعات المطولة والدقيقة للحفلات الموسيقية، تلاشى اهتمامه العارض بالموسيقا الكلاسيكية تمامًا لصالح موسيقا الروك آند رول، لذلك فهو لم يسمع أبدًا عن الظهور الأول المظفر لرباعي إنيسمور في قاعة ويغمور في يوليو من عام 1968، رحّب ناقد صحيفة التايمز بوصول "الحيوية المنعشة وشغف الشباب إلى المشهد الحالي".

وأثنى على "البصيرة، الكثافة المدروسة، وحدّة العزف"، والتي توحي بوجود "نضج موسيقي مذهل يمتلكه عازفون لا يزالون في العشرينات من أعمارهم، وتمكّنوا بسهولة رزينة من العظمة الكاملة للمؤثرات المتآلفة والديناميكية، والمقطوعات المكتوبة بغنىً مخصص يطبع أسلوب موزارت المتأخر، لم يسبق لخماسيته من سلّم دي الكبير أن نقلت بهذه الحساسية" وفي نهاية مراجعته تحدث بالتحديد عن قائدة الرباعي، عازفة الكمان الأولى، "ثم أتت المقطوعة الموسيقية البطيئة حارقة بشدة تعبيرها، منفذة بجمالية وقوة روحية عالية، عزفت الآنسة بونتنغ برقّة إيقاع لحنها والحسية الغنائية لصياغتها، كما لو أنها، إن جاز لي القول، امرأة عاشقة، ليس فقط لموزارت أو للموسيقا، بل عاشقة للحياة نفسها".

حتى لو قرأ إدوارد هذه المراجعة، لم يكن ليعلم – لا أحد

سواها عرف بالأمر – أنه حين أُنيرت جميع أضواء القاعة، ووقف العازفون الذين يشعرون بالدوار لشكر الجمهور على تصفيقه الحار، لم تستطع عازفة الكمان الأولى منع نفسها من التحديق إلى منتصف الصف الثالث، المقعد C9، في السنوات اللاحقة، كلما فكّر إدوارد بها وخاطبها في ذهنه، أو تخيل أن يراسلها أو يصادفها في الشارع، بدا له أن شرح وجوده سيستغرق أقل من دقيقة، أقلّ من نصف صفحة.

ما الذي فعله بنفسه؟ لقد انجرف مع التيار، نصف نائم، غافلًا، قنوعًا، غير جاد، بلا أطفال ومستكينًا، إنجازاته المتواضعة كانت بأغلبها مادية، امتلك شقة صغيرة في بلدة كامدن، حصة في كوخ ذي غرفتَي نوم في أوفيرن، ومتجرين متخصصين للأسطوانات الموسيقية، جاز وروك آند رول، مشاريع متزعزعة يقوّضها التسوق عبر الإنترنت، لقد اعتقد أن أصدقاءه يعتبرونه صديقًا حسنًا، كما أنه حظي ببعض الأوقات الجيدة، الأوقات الصاخبة، خاصة في سنواته المبكرة.

كان عرّابًا لخمسة أطفال، لكنه لم يبدأ بلعب دور في حيواتهم حتى أواخر مراهقتهم وأوائل عشريناتهم.

توفيت والدة إدوارد عام 1976، وانتقل بعدها بأربع سنوات إلى المنزل الريفي ليعتني بوالده الذي كان يعاني حالة سريعة التدهور من داء باركنسون، تزوجت هاريت وآن وأصبح لديهما أطفال، كما أن الاثنتين عاشتا خارج البلاد، بحلول ذلك الوقت كان إدوارد قد بلغ الأربعين من عمره مخلفًا وراءه زواجًا فاشلًا، ويسافر إلى لندن ثلاث مرات أسبوعيًا للاعتناء بمتجريه، توفي والده عام 1983 ودفن في ساحة كنيسة بيشيل إلى جوار زوجته، بقي إدوارد في المنزل الريفي

بصفة مستأجر، لأن الملكية القانونية الآن كانت تعود إلى أختيه، لقد استعمل المنزل في البداية كملاذ له حين يأتي من بلدة كامدن، لكنه انتقل إليه بصورة دائمة في بداية التسعينات ليعيش هناك وحيدًا.

لم تختلف تيرفل هيث أو زاويته منها كثيرًا عن المكان الذي ترعرع فيه، حلَّ المسافرون وملاّك البيوت الثانية مكان العمال الزراعيين أو الحرفيين، لكنهم كانوا لطفاء بما فيه الكفاية.

ولم يكن بمقدور إدوارد وصف نفسه بالتعيس – كان مولعًا بامرأة من رفاقه اللندنيين؛ في خمسيناته كان يلعب الكريكت لصالح فريق تيرفيل بارك، نشطًا في المجتمع التاريخي في هنلي، ولعب دورًا في استعادة الأجمات القديمة لبقلة الماء في أوليم، كما أنه عمل ليومين في كل شهر لصالح صندوق تبرعات في هاي وايكومب المكرّس لمساعدة الأطفال الذين يعانون من التلف الدماغي.

حتى في ستيناته عندما غدا رجلًا ضخمًا وبدينًا بشعر أبيض منحسر، ووجه وردي ينبئ بالصحة، حافظ على نزهاته الطويلة على الأقدام، كان مسيره اليومي لا يزال يمرّ من شارع الليمون الحامض، وحين يكون الطقس جيدًا، كان يسلك طريقًا دائريًا ليتفرج على الأزهار البرية في الأرض المشاع في مايدنزغروف أو الفراشات في المحمية الطبيعية في بيكس بوتوم ثم يعود عبر غابات الزان إلى كنيسة فيشيل، حيث ظنّ أنه هو أيضًا سيدفن فيها في أحد الأيام.

كان يصل في بعض الأحيان إلى عقدة تفرعات طرقية في عمق غابة الزان، يفكر هناك بفتور أنها لا بد توقفت هنا لتستشير خريطتها في ذاك الصباح من أغسطس، ثم يتخيلها بوضوح، تبعد عنه عدة أقدام وأربعين سنة، عازمة على إيجاده، أو قد يتوقف ليتفرج على

مشهد يطلّ على وادي ستونور ويتساءل إن كانت قد توقفت هنا لتتناول برتقالتها، في النهاية استطاع الاعتراف لنفسه أنها الشخص الأحب إلى قلبه من بين كل الذين قابلهم، وأنه لم يصادف أيّ شخص، رجلًا كان أو امرأة بجديتها.

ربما لو بقي معها لكان شخصًا أكثر طموحًا وتركيزًا حيال حياته، لربما كان ألّف كتب التاريخ تلك، لم تكن الموسيقا الكلاسيكية من اهتماماته، لكنه علم أن رباعي إنيسمور كان مشهورًا، وأنه لا يزال يشكل معلمًا محترمًا في مشهد الموسيقا الكلاسيكية.

لم يكن ليحضر الحفلات، أو يبتاع، أو حتى ينظر إلى المجموعات المحفوظة في صناديق لبيتهوفين أو شوبارت، لم يُرد رؤية صورتها أو التعرف على تفاصيل حياتها، بل كان يفضّل المحافظة عليها في ذكرياته بتطريزات البابونج على فتحات أزرارها وشريطة المخمل في شعرها، الحقيبة القماشية على كتفها، والوجه الجميل ذي العظام القوية بابتسامته الواسعة والعفوية.

حين يفكّر بالأمر اليوم يذهله كيف ترك تلك الفتاة صاحبة الكمان ترحل، ورأى الآن بالطبع أن عرضها لطمس نفسها لم يكن ذا صلة بالموضوع.

كل ما كانت تحتاجه هو التيقن من حبه، طمأنته لها بعدم ضرورة الاستعجال لأن الحياة أمامهما، الحب والصبر – لو أنه فقط امتلكهما معًا – كانا كفيلين بجعلهما يتجاوزان جميع الصعاب، وكم عدد الأطفال غير المولودين الذين كان يمكن أن يحصلوا على فرصهم بالحياة، وماذا عن الطفلة بطوق الشعر التي كانت لتصبح معتادة على حبه؟ هذه هي الطريقة التي يتغير بها مسار حياة بأكملها – عبر

عدم القيام بأيّ شيء.

على شاطئ تشيسل كان يستطيع مناداة فلورنس، كان يستطيع اللحاق بها، لكنه لم يعرف، أو لم يهتمَّ بأن يعرف أنها حين كانت تفر منه واثقة في محنتها أنها على وشك خسارته، لم يسبق لها أن أحبته لهذه الدرجة، أو كانت يائسة بهذا القدر، وأنَّ صوته كان لينقذها، ويجعلها تعود.

لكنه عوضًا عن ذلك وقف في صمت بارد في الغسق الصيفي، يراقبها وهي تسرع عبر الشاطئ، صوت تقدمها الصعب يضيع أمام تكسر الأمواج الصغيرة حتى أصبحت نقطة مبهمة منحسرة إزاء الطريق المستقيم الشاسع من الحصباء الملتمعة تحت الضوء الشاحب.

تنويه

إن الشخصيات الموجودة في هذه الرواية خيالية ولا تمت بصلة لأيّ أشخاص حقيقيين أحياء أو أموات، فندق إدوارد وفلورنس – الذي يقع على بعد ميل واحد تقريبًا من أبوتسبيري، دورسيت ويحتل موقعًا مرتفعًا في حقل خلف موقف سيارات الشاطئ – ليس حقيقيًّا .

إيان مكيوان.

المؤلف

إيان مكّيوان روائيّ بريطاني وُلد عام 1948. ألّف أكثر من سبع عشرة رواية. وصلت رواياته «الارتياحُ للغرباء» و«كفّارة» و«كلاب سوداء» إلى القوائم القصيرة لجائزة مان بوكر، وفاز بها عام 1988 عن روايته «آمستردام»، وقد فازت كتبه الأخرى بجوائز عديدة. ألّفَ أيضاً سيناريوهات للمسرح والتلفزيون. أدرجته صحيفة التايمز في قائمة أفضل خمسين روائيًّا بريطانيًّا منذ عام 1945، وحصد الترتيب 19 في قائمة الديلي تيليغراف لأقوى 100 شخصيّة في الأوساط الثقافيّة البريطانيّة. يُقيم حاليًّا في لندن.

المترجم

تهاني فجر، شاعرة ومترجمة من الكويت. صدر لها في الشعر "صورة شخصية للحب"، وترجمت إلى العربية "كل رجال الملك" لروبرت بنوارن، و"لأنه مر.. لأنه قلبي" لستيفن كرين.

على شاطئ تشيسل

«الطريقة التي يُشيح بها نظره بعيدًا ثم يبقى صامتًا، تلك التوقعات المطوّلة منها بأن تمنحه المزيد، وعندما لم تفعل، تحوّلت إلى خيبة أمل لأنها تُبطئ كل شيء. ومهما كانت الحدود الجديدة التي استطاعت تجاوزها، تجد أن هناك دائمًا حدود أخرى بانتظارها. كلّ تنازل قدّمته جعل الطلبات تتزايد، ومن بعدها خيبة الأمل، حتى في أسعد لحظاتهما استمرّ شَبَح الاتهام، تعاسة الفقدان التي بالكاد يخفيها تحوم كما لو كانت جبلًا شاهقًا بينهما، نوعًا من الحزن الأبدي الذي تقبّله الاثنان على أنه موجود بسببها. أرادت أن تُحِبّ وأن تكون ذاتها، لكن لكي تكون ذاتها كان عليها الرفض طوال الوقت، وعندها فلن تكون ذاتها».

إنها ليلة زفاف إدوارد وفلورنس التي جرت أحداثها على أكمل وجه حتى ذهبا لتناول العشاء والمبيت في فندق شاطئيّ هادئ؛ إذ بات كلّ منهما يشعر بعبء ما يتوقّعه منه الآخر الليلة، ويستدعي من الذاكرة ما يُعينه على إشعال حماسته حينًا، أو الشعور بالرّعب أحيانًا أخرى. ودون أن يُدركا ذلك تمامًا، فإن ما سيقومان به الليلة، وكل كلمة يتفوّهان بها، وكلّ إيماءة، ستُرسي قواعد علاقتهما مدى الحياة. هذه رواية عن الحب المثاليّ العميق، عن اصطدام أمواج الرومانسية بصخور الواقع، وعن المجتمع الذي قد تغيّره جذريًّا أمور يختبرها الناس فُرادى، في غرفهم، بعيدًا عن الشوارع العريضة والصُراخ العالي.

مرشّح جائزة مان بوكر 2007

جائزة الكتاب البريطاني 2008

«يرسم لنا مكيوان بكثير من الحميمية واللمسات الإنسانية سوء الفهم الذي قد ينشأ بين زوجين في عصر لم تُناقش فيه العلاق الزوجيّة علنًا بعد.»

لوس آنجلز بوك ريفيو

Photo by Diana Satellite on Unsplash
Cover design by Diana Chamma

ISBN 978-9948-24-172-0

روايات
REWAYAT